

طيور سمائية
وسط صحبة سيئة
فلاديمير كورولينكو

♦ المؤلف: فلاديمير كورولينكو

♦ العنوان: طيور سمائية - وسط صحبة سينة

♦ ترجمة: يوسف نبيل

♦ الطبعة: الأولى 2024

♦ تصميم الغلاف: عمرو الكفراوي

♦ مستشار النشر: سوسن بشير

♦ المدير العام: مصطفى الشيخ



رقم الإيداع:

٢٠٢٣ / ١٠١٣٩

الترقيم الدولي: ISBN

978 - 977 - 765 - 373 - 2

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه، أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات، أو نقله بأي شكل من الأشكال دون إذن مسبق من الناشر.

All rights are reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form, or by any means without prior permission in writing from the publisher.

Afaq Bookshop & Publishing House

1 Kareem El Dawla st. - From Mahmoud Basiuny st. Talaat Harb

CAIRO – EGYPT - Tel: 00202 25778743 - 00202 25779803 Mobile: +202-01111602787

E-mail: afaqbooks@yahoo.com – www.afaqbooks.com

١ شارع كريم الدولة - من شارع محمود بسيوني - ميدان طلعت حرب - القاهرة - جمهورية مصر العربية

ت: ٢٥٧٧٨٧٤٣ - ٠٠٢٠٢ ٢٥٧٧٩٨٠٣ - موبايل: ٠١١١١٦٠٢٧٨٧

فلاديمير كورولينكو
طيور سمائية - وسط صحبة سيئة

ترجمة
يوسف نبيل

آفاق للنشر والتوزيع

هذه ترجمة كتاب:

В дурном обществе - Птицы небесные

جميع الحقوق محفوظة

© آفاق للنشر والتوزيع

All rights reserved

© Afaq Publishing House 2023

مقدمة المترجم

تناولت المرحلة الأولى من سلسلتنا خمسة كتب، شملت مرحلة تاريخية متجانسة في الأدب الروسي (١٨٤٠-١٨٨٠). بهذا الكتاب نبدأ المرحلة الثانية الممتدة من ١٨٨١ وحتى ١٩١٧.

جرى في الثمانينيات تحوُّل حاد في الأدب الروسي دفع الباحثين إلى التحدث عن بداية حقبة جديدة. تتمثل أول ملامح هذا التحول في مغادرة الأسماء الروائية الكبيرة الساحة، بعد أن هيمنت عليها طوال عقود، علاوة على إفساح الرواية المجال للنوفيل والقصص القصيرة مؤقتاً، ففي هذه الفترة لمعت أسماء جديدة، مثل تشيخوف وجارشن وكورولينكو، والجيل اللاحق وعلى رأسه جوركي وبونين.

تبدو الفترة الممتدة بين ١٨٨٠ و ١٨٩٥ مرحلة انتقالية للأدب الروسي تتضمن خواتيم حاسمة وبدايات تجريبية. بعد عام ١٨٨٠ غيَّب الموت كثيرين من مؤسسي واقعية القرن التاسع عشر العظام، أمثال دوستوفسكي وتورجينيف وشيدرين، وخضعت شخصية أدبية بارزة: ليف تولستوي، لأزمة فكرية وروحية عميقة أفضت به إلى الانسحاب مؤقتاً من ميدان الأدب، وعندما عاد إلى الكتابة مجدداً بدا عمله مختلفاً

بشكل ملحوظ عن فنه القصصي والروائي المعهود. في المجال الاجتماعي والسياسي أيضًا نلاحظ تغيرات بارزة، حيث اغتيل القيصر ألكسندر الثاني في عام ١٨٨١، وبدأ خلفه ألكسندر الثالث عهدًا من القمع. أدى هذا القمع، المقترن بفشل بعض الحركات الاجتماعية في أواسط السبعينيات، إلى إحساس واضح بإحباط وخيبة أمل في أواسط قطاع واسع من طبقة المثقفين الروس.

هذه باختصار هي ملامح الفترة التي ظهر فيها كورولينكو.

فلاديمير كورولينكو (١٨٥٣-١٩٢١) أديب وصحفي روسي لامع. وُلد في جيتومير بأوكرانيا حاليًا. كان أبوه قاضيًا وأمه بولندية الأصل. علّمت أمه منذ طفولته، وأثّرت شخصية أبيه الصارم عليه أبلغ تأثير، وهو ما وصفه في إحدى قصتي هذا الكتاب.

ارتبط كورولينكو بالحركة الثورية في أثناء الحكم القيصري وتعرض للاعتقال والنفي أكثر من مرة. طُرد من معهد بطرسبرج للعلوم الأكاديمية الذي التحق به، بسبب نشاطه الثوري. كسب رزقه بعد الطرد من العمل كرسام. بعد المنفى عاد في عام ١٨٧٧ والتحق بمعهد التعدين وبدأ نشاطه الأدبي في هذه الفترة. لكن في ١٨٧٩ طُرد من المعهد مجددًا بسبب الاشتباه في نشاطه الثوري. تنقل بين عدة سجون، وأُفرج عنه مجددًا.

في ١٨٨١، مع وصول القيصر الجديد إلى الحكم، رفض كورولينكو أن يقسم له الولاء، ومن ثم نُفي مجددًا إلى سيبيريا. قضى هناك فترة صعبة صارت مادة غنية لكتاباتة. في ١٨٨٥ سمحوا له

بالاستقرار في نيجني نوفجورود، وفي الفترة من ١٨٨٥-١٨٩٥ لمع اسمه كأديب. تزوج في ١٨٨٦ وعاش مع زوجته طوال حياته. ظهرت أفضل أعماله في هذه الفترة: حلم مقار ١٨٨٥، وسط صحبة سيئة ١٨٨٥، الموسيقى الأعمى ١٨٨٦. ترأس مجلة الثروة الروسية طوال ٢٥ عامًا. تمتع بشعبية هائلة وندد بأحكام ظالمة كثيرة في أثناء الحكم القيصري.

اختير أكاديميًا فخريًا، إلى جانب تولستوي وتشيفخوف وسولوفوف، في أكاديمية بطرسبرج للعلوم، لكنه استقال في ١٩٠٢ احتجاجًا على استبعاد مكسيم جوركي منها لأسباب سياسية. بعد اندلاع الثورة البلشفية أدان كورولينكو صراحة أساليب الإرهاب التي لجأ إليها البلاشفة في تطبيق الاشتراكية.

بشكل عام تُعد فترة الثمانينيات هي الفترة الأبرز في إنتاج كورولينكو الأدبي، حيث تميزت بقصص إنسانية بسيطة وعميقة في الآن ذاته، وبعد هذه الفترة ازداد نشاطه الاجتماعي والصحفي؛ الأمر الذي أثر على إنتاجه الأدبي بدرجة أو بأخرى.

اخترنا في هذا الكتاب قصتين من هذه الفترة: وسط صحبة سيئة ١٨٨٥ - طيور سمائية ١٨٨٩.

تناول القصة الأولى ذكريات طفولة كورولينكو وحياته في المدينة، وعلاقة البطل بأبيه بعد وفاة الأم، كما تُقدّم رصدًا أمينًا لحياة الفقراء والمتسولين في هذه الفترة. تساعدنا القصة -من دون أي خطاب سياسي مباشر- على فهم طبيعة الحياة الاجتماعية في المدن الصغيرة

التي تناثرت في جميع أنحاء روسيا، كما تُبين الفقر المدقع الذي عاش فيه كثيرون. يكتب كورولينكو أحداث القصة من منظور بطلها الطفل، ويُقدّم لنا لغة إنسانية رقيقة وساخرة، ويرسم لوحات شديدة الجمال ببساطة فائقة.

تتناول القصة الثانية ظاهرة روسية شديدة الأهمية: ظاهرة الحُجّاج والجوّالين الروس. في هذا الوقت تعود كثيرون على الطواف في الأرض الروسية الواسعة، وزيارة الأديرة ولقاء المعلمين الروحانيين والعيش على الصدقة. علاوة على الأهداف الدينية المباشرة الكامنة خلف هذه الظاهرة، توجد أسباب أخرى تتمثل في الفقر أو الجروح النفسية الأليمة التي تدفع أصحابها إلى الفرار. هي باختصار ظاهرة مركبة روسية الطابع إلى أقصى حد، وفي هذه القصة يُعرّفنا كورولينكو على بعض شخصيات هذه الظاهرة المهمة.

بقي أن أشير إلى أنني استقيت بعض المعلومات في هذه المقدمة من كتاب: تاريخ الأدب الروسي، لشارلز موزر.



طیور سمائیت

في هذا اليوم احتفل الدير بلقاء الأيقونة المقدسة. ظلت أيقونة سيدتنا العذراء تطوف أماكن مختلفة لمدة طويلة، قرابة شهرين، والآن عادت إلى منزلها.

كان الآباء المرافقون لها هم أول من وصلوا، وقد جاءوا في عرباتهم التارنتاس^(١) تجر كل منها ثلاثة جياد، وقد صاحبهم الأجراس والترتيلات، وجلبوا إلى الدير الخزانة التي جمعوا فيها أموال الصدقات في أثناء رحلة طوافهم بالأيقونة المقدسة. بدوا في تمام الصحة، شباعى وراضين. بعد ذلك تدفقت على الدير أعداد وفيرة من الحجاج القادمين من ناحية الغابة، وازدادت الجموع أكثر فأكثر حتى ومض في النهاية الإطار الذهبي للأيقونة فوق الرؤوس في ضوء الشمس.

قرعوا الأجراس وومضت وخفقت الرايات، وتساعد ترتيل الجوقة وأصوات الحشد الذي بلغ قرابة ألف شخص، كنهر قوي، وملأ أرجاء القرية الهادئة المحيطة بالدير.

انتعش المكان. أنشدوا الصلوات في الكنيسة، وتعالى صياح التجار والتاجرات في الميدان تحت مظلاتهم القماشية، وصدرت الأصوات المتناغمة ودقات الدفوف من الكنيسة، وتبادلت مجموعات

(١) عربة ذات أربع عجلات وإطار طويل لتقليل الاهتزازات.

الحجاج الوافدة إلى القرية الأماكن على الطاولات التي انتفخت عليها
السماورات^(٢) الضخمة.

قراية المساء تساقطت أمطار غزيرة فجأة؛ الأمر الذي أدى إلى تشتيت
الحشد والتجار من السوق. ساد الهدوء على الميدان وسكنت الشوارع،
واقصر الأمر على تساقط قطرات ضخمة من المطر في البرك المتناثرة،
واندفعت الريح وصفعت الستائر المبللة، وصدرت من الكنيسة أصوات
ترتيل متناغم، وأضاءت الشموع الصفراء أعماق الهيكل.

عندما ارتفعت سحابة فجأة، وسبحت تجاه الشرق، جارة خلفها
حجاباً ممزقاً من الضباب فوق الحقول والغابة، بانث الشمس من
الغرب بلطف، ولامست أشعتها الأخيرة نوافذ القرية وصلبان الدير.
لكن ميدان السوق لم يعد للحياة من جديد، فقد شعر الحجاج بتعطش
هادئ للراحة بعد وعاء الطريق، وتلاشى النهار، تزامناً مع النغمات
الأخيرة للخدمة الكنسية. حتى الدف الكنسي قرع منهكاً بصوت أصم
من خلف أسوار الكنيسة.

انتهت الصلاة. انطفأت الشموع في أعماق الهيكل، واحدة تلو
الأخرى. تفرق المصلون. وقفت حشود الجوالين والحجاج عند منزل
الضيافة في الدير في انتظار أن يسمح الأب الراهب المسؤول عن
منزل الضيافة لهم بالدخول. خرج إلى الشرفة الخارجية راهب سمين
واثنان من الرهبان المبتدئين^(٣)، وبدأوا في فصل الخراف عن الماعز.

(٢) جمع سماور وهو وعاء ضخمة لإعداد الشاي.

(٣) راهب في فترة الاختبار.

دخلت الخراف من الباب، أما الماعز فقد طردوه، وخرج من البوابة متذمرًا^(٤). عندما انتهت هذه الإجراءات تبقت عند المدخل مجموعة من الموردوفيات^(٥) وأحد الجوّالين. يبدو أن مصيرهم لم يُت فيه بعد من جانب الأب المضيف الذي فارق المكان ودخل البناية.

بمرور دقيقة خرج الراهبان المبتدئان وأحصيا الموردوفيات وأدخلاهن إلى القسم النسائي من دار الضيافة، واقترب أكبرهما من الجوّال الوحيد وانحنى أمامه وقال:

- فلتسامحني وحق المسيح يا أخي فارسنوفي. الأب المضيف لم يوافق على مكوئك. اذهب بسلام!

ارتسمت على وجه الجوّال الشاب ابتسامة معذبة لفتت انتباهي إلى قدر الأهمية والدرامية الخاصة لهذه الشخصية. بدا وجهه رائعاً؛ يشبه وجه الصقر، شديد النحول، ذا عينين لامعتين وكبيرتين. أضفت القبعة الحادة مظهرًا مميزًا على هذا الوجه. أثار هذا الجسد الجاف، بردائه الطويل القديم وعنقه الرفيع ومظهر الوجه الجانبي البارز، الاهتمام به تلقائيًا. ترك مظهره انطباعًا حادًا ومقلقًا ومربكًا.

بعد أن استمع الجوّال إلى كلمات الراهب المبتدئ، انحنى وقال:

(٤) الخراف والماعز هنا صورة رمزية لمجموعات الحجاج والمتجولين. تستخدم اللغة الإنجيلية كثيرًا تشبيهًا للمؤمنين بالخراف، والراعي الصالح هو المسيح، وهي صورة مستمدة من البيئة البدوية المنتشرة في ذلك الوقت، بعكس تشبيه الخراف الآن الذي صار بمثابة مسبة في بيئات ثقافية أخرى.

(٥) نساء من الشعب الموردوفي، وهم أحد الشعوب الأصلية في روسيا. يعيش هذا الشعب الآن في جمهورية موردوفيا.

- فليخلصنا الله أيضًا من ذلك!

استدار ليغادر، وفجأة بدأ جسده يتهاوى. كان من الواضح أنه مريض وقد هدّه الإنهاك تمامًا. تفحصه الراهب المبتدئ الطيب، وقال مترددًا:

- انتظر قليلًا يا أخي فارسنوفي. سأعود لك مجددًا.

استند الجوّال إلى عصاه وانتظر ساكنًا. لكن بمرور دقيقة خرج الراهب المبتدئ مجددًا من الباب، واقترب منه مضطربًا وقال بأسف واضح:

- لا، لم يوافق. أخبره الأب نيفونت أنه يجب ألا يستقبل جوًّا لا مثلك يتحدث بصورة غير لائقة ويربك الناس.

ومض شيء ما على وجه الجوّال. لمعت عيناه كما لو أنه أراد أن يعترض، لكنه انحنى وقال: «شكرًا أيها الآباء!». وخرج منهكًا من الباب.

نظر المبتدئ إليّ باستفهام. فهمت أنه ينوي إغلاق البوابة، ومضى فعلاً إلى الفناء الأمامي. كان المكان قد فرغ بالفعل. وقف بائع أرغفة الدير الشاب خلف صندوقه^(٦) الذي لم يقترب منه أحد.

أغلق حارس البوابة إحدى البوابتين من خلفي، ثم دفع بقدميه بقوة وبدأ يغلق الثانية. في غضون ذلك تعالّى ضجيج من خلف البوابات

(٦) الكلمة الأصلية تشير إلى نوع معين من الصناديق يشبه الأكشاك الصغيرة، يعرض فيه الباعة بضاعتهم، ثم يغلقونه، وبعض هذه الأنواع يمكن تحريكها على عجل.

وأصوات أزواج من الأقدام تطأ الأرض، وانفتحت البوابتان مجدداً،
وظهرت شخصية بسيطة ترتدي رداء الجوّالين بلون أحمر بهتت درجته.
اتضح أن يداً ثقيلة تمسكه من مؤخرة العنق وتجبره على الحركة. دفعة
قوية، وطار الجوّال مسافة بضع خطوات وسقط، وطار من خلفه حقيبة
ظهر فالأخرى. تقلّب كتاب صغير ملفوف بتنف من الجلد في الوحل
وخشخش أوراقه بفعل الريح. قال صوت جهير عميق من خلف البوابة:

- لا تتحامق!

تساءل صوت حارس البوابة:

- ما الأمر؟

أجاب صاحب الصوت الجهير:

- سأقول لك. بسببه ارتكب الأب المضيف خطية؛ لقد طرد إنساناً،
إنساناً طيباً. أوف! خطية حقيقية!

غادر بعدها المتحدث. أغلق الراهب الحارس البوابتين، ولكن
ليس كاملاً، وأخذ ينظر بفضول من الشق بينهما بعينه الصغيرتين وأنفه
السمين وشاربه الأشقر. ظل يتابع باهتمام واضح ماذا سوف يفعل
الجوّال المطرود.

نجح الأخير في النهوض وتناول حقيبتيه؛ واحدة على ظهره
والأخرى على كتفه، ثم تناول الكتاب وظل ينظفه بكد من الأوساخ
التي علقته به. ألقى نظرة سريعة على الساحة، ولاحظ وجودي أنا وبائع
الخبز. راقبت مجموعة صغيرة من الفلاحين الحدث من خلف البوابة

الخارجية. بدا الجوّال كما لو أنه قرر شيئاً ما، وقبّل غلاف الكتاب بوقار واضح، وانحنى انحناءً ساخرة تجاه البوابات الداخلية قائلاً:

- شكراً أيها الآباء القديسون! اعتنيتم بالغريب وأطعتمم الجائع!
فجأة، لاحظ شارب الأب حارس البوابة وأنفه من بين شقي الباب،
فقال بنبرة مختلفة:

- إلام تنظر؟ هل عرفتني؟

قال حارس البوابة:

- أظن أنني أعرفك.

- بالطبع! بالطبع! نحن صديقان! لقد هرعنا معاً إلى نساء موردوفيا.
هل تذكرتني الآن؟

بصق حارس البوابة بصوت عالٍ واستياء وأغلق البوابتين بالمزلاج.
لكننا رأينا قدميه لبرهة من تحت البوابة في ذلك الحذاء الخشن طويل العنق.
- أتذكر فينكا يا أبي؟

اختفت القدمان بخجل من خلف البوابة.

عدّل الجوّال قبعته القذرة ونظر حوله مجدداً. جاء ستة فلاحين
وقد جذبهم هذا الحوار اللاذع. كانوا أقرب جيران للدير، وهم من
طائفة المؤمنين القدامى^(٧) من القرى المجاورة، وقد تجولوا في السوق
وبدت عليهم اللامبالاة، بل وقدر من الفضول العدائي إلى حد ما.

(٧) مجموعة من الطوائف الأرثوذكسية الروسية ظهرت إثر الانقسام الكنسي الذي حدث نتيجة إصلاحات البطريك نيكون في موسكو بين ١٦٥٢-١٦٦٦، وهم يحاولون الحفاظ على الطقوس والمعتقدات الكنسية القديمة قبل هذه الإصلاحات.

على الرغم من أن الدير قد مدَّ نفوذه بعيدًا، فإنه محاط بدائرة من أكثر المنشقين سخطًا، على حد تعبير رهبان الدير. تكوّنت أسطورة بين السكان المحيطين بالدير مفادها أن الدير مُهدّد في المستقبل القريب بمصير سدوم وعامورة^(٨)، لكن حتى الآن لا يزال الدير حيًّا ويجذب إليه آلاف الناس في الأعياد. في هذه الأيام يبدو جيران الدير من أصحاب الإيمان القديم حزانى بسبب الحشود المبتهجة، وعلى وجوههم ملامح الاغتراب والانعراج. يتذمرون كالنبي يونان من بطء الرب في تنفيذ مصير مدينة نينوى الخاطئة الذي تنبأ به.

الآن ينظرون بفضول خبيث إلى مكان المشهد عند بوابات الأشرار. قال أحدهم ساخرًا:

- يبدو أنهم لن يسمحوا لك بالدخول. المكان مليء بالموردوفيات! استدار الجوّال صوب المتحدث وألقى إليه نظرة حادة. لكن فجأة اكتسى وجهه بتعبير متواضع، والتفت مجددًا صوب البوابتين ورشم على نفسه علامة الصليب ثلاث مرات بورع.

نظر الفلاحون فيما بينهم في حيرة. لم يرشم الجوّال الصليب بأصابعه الثلاث، بل بإصبعين فقط على طريقة المؤمنين القدامى وقال متنهدًا: «الله يرى كل شيء. فليجازهم الرب بحسب رحمته. أما نحن أيها الإخوة فسننفض الغبار عن أرجلنا^(٩)، ونطيع الرب هنا في الهيكل

(٨) مدن قوم لوط التي دمرها الله بحسب القصة التوراتية والقرآنية.

(٩) إشارة إلى: «وَمَنْ لَا يَقْبَلُكُمْ وَلَا يَسْمَعُ كَلَامَكُمْ فَأَخْرِجُوا خَارِجًا مِنْ ذَلِكَ الْبَيْتِ أَوْ مِنْ تِلْكَ الْمَدِينَةِ، وَانْفُضُوا غُبَارَ أَرْجُلِكُمْ». (مت ١٠: ١٤).

الذي لم تصنعه أيدي بشر (أشار بحركة جميلة وهادئة إلى السماء التي بدأ الليل يخيم عليها) حيث نستمع إلى كلماته التي تهدينا إلى التوبة».

اقترب الفلاحون من بعضهم، ولاح على وجوههم تعبير ينم عن ارتباك مبهج وشكّك بعض الشيء. كانت كلماته إليهم غير متوقعة بتاتاً. راقت لأصحاب الإيمان القديم فكرة أن يعقدوا اجتماعهم في عيد غريب، وأن يستمعوا إلى عظة جَوَّال يرشم الصليب بطريقتهم القديمة. وقف الواعظ عند برج جرس الكنيسة. هزت الريح خصلات شعره الشقراء.

لم يكن بالإمكان تحديد عمر الرجل، ولكن من الواضح أنه لم يهرم بعد. احترق وجهه بشدة من الشمس، وبدا شعره وعيناه كما لو أنها قد تلاشت بفعل الشمس وسوء الطقس.

مع كل حركة لرأسه - مهما بدت طفيفة - تبرز أوتار عنقه بحدة. يشعر المرء تلقائياً بشيء بائس في هذا الإنسان، شيء يثير الحذر، وربما يبدو شريراً.

بدأ يقرأ من كتابه جهراً. قرأ بصورة جيدة وببساطة وإقناع، وتوقف بين الحين والآخر ليدلي بتعليقاته الخاصة. رمقني مرة بنظرة سريعة، ولكن سرعان ما نحى عينيه عني. بدا أنه يستاء من وجودي. بعد ذلك التفت بالأكثر صوب واحد من المستمعين.

كان فلاحاً عريض المنكبين، قصيراً وبدينًا، بجسد يبدو كما لو أنه نُحت بضربة فأس أو اثنتين وحسب. بصرف النظر عن هذا الجسد الأخرق، بدا الفلاح منفتحاً بدرجة استثنائية. تابع كل كلمات الواعظ بحماسة وأضاف إليها ملاحظات الخاصة التي نمت عن نوع من الفرح

الطفولية. قال ناظرًا من حوله:

- آه يا إخوتي! صحيح ما قاله لنا عن التوبة. كما تعرفون، قد تحل
النهاية ونحن لا نزال نصعد درجات الخطية؛ درجة تلو الأخرى،
أليس كذلك؟

- بلى، ونستمر في الصعود درجة تلو الأخرى.

- صحيح. آه!

ونظر بعينين مشرقتين إلى المجتمعين من حوله.

لكن يبدو أن تدخُّله الصاخب وحماسته لم يروقا للواعظ. توقف
فجأة والتفت برأسه قليلاً، وبرزت أوتار عنقه كالجمال. بدا كما لو أنه
يريد أن يقول شيئاً لكنه أمسك نفسه وقلب الصفحة.

تبين أن المستمعين ابتهجوا قبل الأوان. في اللحظة التي يصلون
فيها إلى أوج غبطتهم، تُثقل الكبرياء والأمل المفرط درجات السلم.
ترتعش الدرجات، وينعكس على وجوه المستمعين الخوف وتتحطم
درجات السلم. هنا يقول بصوته الجهير بكآبة:

- الآن انتهت العظة.

- نعم يا أخي.

يلتقط الأول خيط الحديث، والغريب في الأمر أن عينيه لا تزالان
تشعان بالإشراق، وتلوح البهجة في صوته، ويكمل:

- نعم يا أخي! لم يعد لدينا عذر، ويجب ألا نصعد حتى ولو درجة
واحدة من درجات الخطية.

يغلق الجوّال كتابه، ويُثبّت بصره على المتحدث لبضع لحظات.
لكن الفلاح يقابل هذه النظرة بالبهجة والثقة ذاتهما. سأله الواعظ:

- هل تعتقد ذلك؟

- نعم. احكم بنفسك يا صديقي العزيز: إلى متى يحتملنا الرب؟

- هل تعتقد ذلك؟

هكذا سأله الواعظ مجدداً بطريقة هجومية، وشيء ما في نبرته أثار قلق الفلاح، ثم أكمل:

- يوجد حد لطول أناة الله علينا. ربما تعرفون أيها الإخوة أنه توجد
كنيسة أرثوذكسية جامعة.

قلّب بضع صفحات ثم بدأ يتحدث عن القوة الروحية للكنيسة
الأرثوذكسية. وجمت أوجه المستمعين. توقف الواعظ وقال:

- الكنيسة الأرثوذكسية كنيسة جامعة. أليست هي سلم الإنقاذ؟ من
يهرع إليها لا يمكنه أن يُخزى، ولكن إذا...

ساد صمت مثير للتوتر لبضع لحظات.

يقف الغريب في مواجهة مجموعة من الفلاحين، شاعراً أنه يتحكم
كُلّية في حالتهم المزاجية. منذ بضع لحظات تابعوه ببهجة، ولم يكن من
الصعب التنبؤ بنتائج العظة: أصحاب الإيمان القديم صاروا مستعدين
لدعوة المنفي من قبل الرهبان إلى منازلهم. الآن هم مضطربون ولا
يعرفون ماذا يفعلون.

واصل الجوّال حديثه، مشدداً على كل كلمة:

- ولكن ماذا لو رفض إنسانُ الكنيسةَ التي هي الأم الوحيدة؟ ماذا لو آمن أحدهم بالخلاص تحت الأرض مع الجرذان وعوّل على أصحاب الرؤوس الحليقة^(١٠)؟

استدار الفلاح صاحب الصوت الجهير بحدة وتبع الآخرين. نظر صديقه الطيب من حوله وقد لاح عليه الإحباط والحيرة، وقال بنبرة استفهامية بعض الشيء: «هل أنت مصدوم؟». توجّه المنشقون صوب البوابات واجمين. بقي الجوّال وحيداً. برز جسده بحدة على خلفية برج الأجراس، ولاح تعبير غريب في عينيه الباهتتين اللتين كانتا زرقاوين ذات مرة. من الواضح أنه ظن أن عظته كانت ستوفر له مأوى رفض الرهبان توفيره له. لماذا غيّر لهجته معهم هكذا فجأة؟

الآن صرنا ثلاثة فقط عند البوابة: الجوّال وأنا والشاب بائع الخبز تحت المظلة القماشية. ألقى الجوّال نظرة سريعة تجاهي، لكنه سرعان ما نحّى عينيه عني واقترب من بائع الخبز. شَعَّ وجه الشاب بالسرور. قال:

- أنت أذكى منهم. أربكتهم جميعاً. قُصّوا جميعهم شعورهم كما لو أن الشياطين تدرس^(١١) البازلَاء. ههههه!

انخرط الرجل في ضحكة مرحة شابة وبدأ يجمع بضاعته المعروضة ويضعها داخل صندوقه الصغير.

(١٠) أصحاب الرؤوس الحليقة هم المؤمنون القدامى المنشقون عن الكنيسة الأرثوذكسية الروسية الرسمية.

(١١) عملية فصل الجزء الصالح للأكل من حبوب النبات عن القش الحشفي غير الصالح للأكل.

بعد أن انتهى من ذلك أغلق الأبواب المنزلقة وأحكم القفل. صُنع الصندوق الصغير بطريقة جيدة، بحيث يمكن تحريكه على عجلات، كما تضمّن غرفة سفلية. من الواضح أن الرجل نوى أن يقضي ليلته مع بضائعه. نظر إلى السماء وقال:

- حان وقت النوم.

كان المكان في الساحة وخلف البوابات فارغًا وهادئًا. انهمك الباعة في السوق أيضًا في جمع بضاعتهم. رشم الرجل علامة الصليب أمام الكنيسة وفتح باب صندوقه قليلًا وزحف لينام تحته.

سرعان ما ظهرت يده من هذا المكان. كان يحاول سد الفتحة الصغيرة التي فتحها برفّ صغير.

نظر الجوّال هو الآخر إلى السماء، واستغرق في التفكير لبضع ثوانٍ، ثم اقترب بحزم من الصندوق وقال:

- انتظر يا ميخايلو! أنا إنسان طيب وسأساعدك.

أزاح صاحب الرداء الأبيض^(١٢) ذراعه، وبرز من أسفل مأواه ناظرًا إلى الأعلى، وقال بسماحة:

- اسمي أنطون.

- حسنًا يا أنطوشا. دعني أساعدك.

- ساعدني وسأشكرك. كما ترى، الخروج من هنا صعب.

(١٢) اللفظة الروسية الأصلية تشير إلى من يستعدون لدخول الرهينة، ولكنهم لم يُسمّوا بعد، ويُشار إلى الواحد منهم بالأبيض بعكس الراهب الذي يرتدي ثيابًا سوداء.

ثم توارى وجه أنطون الطيب.

- حرّك قدميك قليلاً.

نفّذ أنطون طلبه. حينها نحّى الجوّال الرف بهدوء وانحنى برشاقة، ورأيت بتعجّب كيف اندفع سريعاً إلى الفتحة التي أسفل الصندوق. تعالى ضجيج. أخذ أنطون يحرك قدميه، ولاح جزء من جسد الجوّال للحظة في الخارج، ولكن سرعان ما انسلّ إلى الداخل مجدداً.

أثار تحوّل الأحداث هذا اهتمامي، ووجدت نفسي أقترّب من دون وعي تقريباً من الصندوق. سمعت صوت أنطون المكتوم والشاكي وهو يقول: «سأصرخ! سأصرخ!»، وسمعت صوت الجوّال أيضاً يحاول تهدئته: «لا تصرخ يا ميشا^(١٣)! ما الجدوى من الصراخ؟». «لماذا تصر على مناداتي بميشا! قلت لك أنا أنطون!». «عندما تصير راهباً سيدعونك ميخائيل. تذكّر حينها كلمتي. ششش! اهدأ يا أنطوشا! اصمت!».

ساد الصمت في الصندوق، ثم:

- ما هذا؟ ماذا تسمع؟

- إنها تمطر.

- وماذا في ذلك؟ لو صرختُ سيأتي إليك الآباء ويفعلون بك أقوى مما يفعله المطر.

- لماذا تظل تكرّر وتكرّر أنك ستصيح؟ الأفضل لك ألا تصيح. هل سأكلّك أم ماذا؟ سأحكّي لك قصة مثيرة عن إحدى الراهبات.

(١٣) ميشا تدليل لميخائيل أو ميخايلو كما يصر الجوّال على تسميته.

- أرى أنك تحاول سرقة شيء ما.
- إنها خطيئة يا أنطوشا أن تفترى على جَوَّال. لقد أعطيتني بنفسك هذا الرغيف. لم أكل شيئاً اليوم. أنت إنسان مؤمن بالله.
- هيا، هيا اقضم هذا الرغيف الصلب. لم أكل أنا أيضاً شيئاً.
- ثم تئاءب أنطون بقوةٍ نَحَّت عنه كل تصوُّر لإمكانية إبداء مقاومة أو معارضة. أضاف بعد أن أنهى تثاؤبه الشهوي:
- لقد أربكت هؤلاء المغفلين ببراعة. لقد كشفتهم.
- وماذا عن الآباء؟
- لقد أرادوا أن يصبقوا عليك. لقد وعدتني بأن تحكي لي حكاية.
- لماذا لم تحكِ؟
- بدأ الجَوَّال:
- «في إحدى الممالك، وفي إحدى الدول، وفي دير قابع خلف الجدار الحجري، عاشت وترعرعت يا أخي أنطوشا راهبة... هكذا عاشت الراهبة... آه!».
- حسناً. أكمل!
- هكذا عاشت وترعرعت... جَفَّت وحرزنت...
- صمت.
- وبعد ذلك؟ أكمل!
- صمت مجدداً. سأل أنطون وقد أثير اهتمامه.

- أكمِل! ما الذي أحزنها؟

- شيطان يأخذك! ماذا بك؟ لماذا أقص عليك هذه الحكاية؟ ظللت

أسير كالثور مسافة ثلاثين فرسًا^(١٤). لقد حزنت الراهبة بسببك

أيها الأحمق. هذا هو الأمر! لا تعطلني عن النوم!

صاح أنطون صيحة عبّرت عن ذهوله، وقال بتوبيخ:

- أنت وغد حقًا. الآن فهمت خطتك. برافو أيها الوغد! (وبعد

دقيقة أخرى، ولكن بلهجة أهدأ وأكثر إثارة للحنن) حسنًا أيها

الوغد، لم أرَ وغدًا مثلك من قبل.

ساد الصمت داخل الصندوق. أخذ المطر يقرع سطح الصندوق

المائل أقوى فأقوى حتى اسودّت الأرض وتلاشت برك المياه في

الظلام. همست حديقة الدير بشيء ما، ووقفت البنايات خلف

الحائط بلا شيء يدافع عنها ضد المطر الذي أخذ يغمغم في أثناء

تدفّقه عبر مواسير الصرف. وصفق الحارس بالتريشوتكا^(١٥) خلف

السياج.



(١٤) وحدة طول روسية قديمة تساوي ١,١ كم.

(١٥) آلة موسيقية روسية لإيقاع الموسيقى الشعبية تُستخدم في تقليد التصفيق باليد. تتكون من

مجموعة من اللوحات الصغيرة على سلسلة.

في اليوم التالي، أخذت طريق العودة بصحبة أندريه إيفانوفيتش، رفيق الكثير من رحلاتي. لم يخلُ طريق عودتنا من المغامرات. قضينا ليلتنا في القرية وانطلقنا في الصباح ولكن في وقت متأخر قليلاً. خلا الطريق من الحجاج تمامًا، وكان من الصعب أن يتصور المرء أن حشودًا كثيفة من الناس ملأت هذا الطريق منذ فترة بسيطة. عادت القرى لمنظرها المعتاد، وبين الحين والآخر كنا نرى بعض العمال يركضون. بدا الجو حارًا وخانقًا.

اتسم رفيقي اليوم، وهو طويل ونحيل وعصبي، بالكآبة والانفعال. اعتدت أن أراه كذلك في نهاية رحلاتنا المشتركة. لكنه اليوم بدا في حالة مزاجية شديدة السوء، بل إنه أعرب عن استيائه مني شخصيًا.

بعد الظهيرة، وفي حرارة قائظة كهذه، سئمتنا من بعضنا تمامًا. لسبب ما يجد أندريه إيفانوفيتش أنه من الضروري أن نستريح في مكان غير ملائم بتاتًا، من دون أي سبب واضح، وفي أوقات أخرى يرتئي العكس؛ أي ضرورة مواصلة المضي في طريقنا حينما أشعر بضرورة أخذ قسط من الراحة.

هكذا كان الحال حينما وصلنا إلى الجسر الصغير. تدفق النهر الصغير بهدوء بين المساحات الخضراء والرطبة، محررًا رؤوس زناجب

المياه على سطحه. تدفق النهر منعطفاً خلف حافة الضفة بين الحقول
المتموجة. قلت له:

- لنستريح!

أجاب أندريه إيفانوفيتش:

- بل علينا أن نكمل مسيرنا.

جلست على حواجز الجسر ودخنت سيجارة، بينما اندفع أندريه
إيفانوفيتش النحيل في طريقه. صعد التل وتوارى خلفه. ملت نحو النهر
الصغير واستغرقت في التفكير، ظناً أنني وحدي تمامًا، وفجأة شعرت
بأعين أحدهم مصوبة نحوي، ورأيت على التل شخصين تحت أشجار
البتولا. بدا لي وجه أحدهم صغيراً للغاية، بل بدا لي طفولياً. توارى
هذا الشخص خلف قمة التل في العشب. أما الآخر فكان واعظ الأمس،
وقد نظر إليه بعينيه الرماديتين الوقحتين، مستلقياً على العشب. قال لي
ببساطة:

- انضم إلينا رجاءً. سيكون الحال أفضل باجتماعنا.

نهضت ورأيت بدهشة قدمي أندريه إيفانوفيتش خلف السنابل
على الطريق. جلس قريباً على العشب وقد ارتفع دخان سيجارته فوق
السنابل. تظاهرت بأنني لم ألحظ وجوده، وتوجهت إلى كلا الجوالين.
تبين أن ذلك الشخص الذي بدا لي طفلاً هو كائن صغير وضعيف،
وقد ارتدى غفارة^(١٦) مقلمة، وأحاطت خصلات شعر ناعمة بوجهه

(١٦) رداء كنسي.

الأصفر الصغير، وبدا أنفه كمناكير الطيور. ظل يلف عباءته، قلقاً ومتمللاً، وبدا أنه شعر بالخجل من وجوده هنا.

تحرك الواعظ قليلاً وقال لي: «اجلس، ستكون ضيفنا». ولكن في هذه اللحظة انتصب جسد أندريه الطويل والنحيل فوق السنابل كظل بانكو^(١٧). قال بمكر خاص، ملقياً بعقب سيجارته بعيداً:

– أسنذهب أم ماذا؟

أجبت:

– يبدو لي البقاء مع هذين المتطفلين أكثر بهجة.

رمقني أندريه إيفانوفيتش بنظرة حزينة، كما لو أنه يريد أن يزرع في نفسي وعياً بخطأ اختياري. قلت له مجدداً:

– أكثر بهجة معهما.

– سئمت منك. فلتستمع بالصحبة الطيبة.

سحب قبعته وسار قليلاً ثم توقف واستدار وقال ساخطاً:

– لا تدعني أبداً. أنت وغد. لن أمضي معك أبداً إلى أي مكان. لا تحاول دعوتي مجدداً. أرفض التعامل معك بتاتاً.

– أدعوك أو لا أدعوك، هذا شأني. أما أنت فيمكنك أن توافق على صحبتي أو ترفضها، هذا شأنك.

هز الجوّال رأسه تجاه المبتعد عنا قائلاً:

(١٧) إحدى شخصيات مسرحية مكبث لشكسبير. الإشارة إلى ملاحقة شخص ما بلا هوادة.

- إنه سيد جاد حقاً!

قال الصغير متنهّداً بصوت يشوبه الحزن:

- لا يوافق على صحبتنا.

قال الواعظ بلا مبالاة:

- لا تهمنا موافقته من عدمها. (ثم توجّه بالحديث صوبي) أليست معك سيجارة يا سيدي؟

- تفضل.

مددت له علبة السجائر. أخذ منها سيجارتين، أشعل إحداهما ووضع الأخرى بجانبه. فسّر صاحب الجسد الصغير ذلك بما يلائمه، ومد يده بتردد من أجل تناول السيجارة الأخرى. لكن الواعظ أبعد السيجارة عن يده الممدودة بهدوء، ونقلها إلى الناحية الأخرى. ارتبك صاحب الجسد الضئيل ولف عباءته حوله مجدداً بنوع من الخجل.

مددت له سيجارة أخرى؛ الأمر الذي زاد ربكته، وارتعشت أصابعه النحيلة والصغيرة، وابتسم بحزن وارتباك قائلاً:

- لا أعرف كيف أطلب شيئاً يا سيدي. أفتونوموف يطلب ويطلب ولكنني لا أستطيع يا سيد.

- من أفتونوموف هذا؟

قال الواعظ، ناظرًا إلى رفيقه الصغير بصرامة:

- أنا جينادي أفتونوموف.

خفض الصغير بصره ووجهه الأصفر بُذِل. لمعت صفائر شعره
الناعمة واهتزت. سألني أفتونوموف:

- هل تتمشى لأهداف صحية أم هكذا كما يحلو لك؟

- هكذا بدافع الفضول. وأنت، إلى أين تمضي؟

نظر بعيداً وأجابني:

- إلى باريس، وربما أقرب من ذلك؛ إلى إيطاليا أو ما شابه.

عندما لاحظ دهشتي أضاف:

- أمزح معك. أمضي إلى حيث تأخذني قدماي. هكذا حالي منذ
إحدى عشرة سنة.

قالها بنبرة وشت بالحزن، نافثاً دخان سيجارته، متابِعاً بعينه كيف
تذوب السحب الزرقاء في الهواء. ومض على وجهه شيء ما جديد لم
ألحظه سابقاً.

- حياة فاسدة يا سيد! وجود مُبَدَّد يستحق نصيباً أفضل.

تلاشى الحزن من صوته، وأتم كلامه بصوت طنان، نافثاً دخان
السيجارة في الهواء:

- مع ذلك يا سيدي العزيز لن يوافق الجوّال على أن يستبدل بحريته
أي منازل فاخرة.

في هذا الوقت طار طائر ما صغير شجاع فوق رؤوسنا، كما
لو أنه كتلة ترابية من الأرض قذفها أحدهم، وحطَّ على فرع واطىء
لشجرة بتولا، وأخذ يزقزق من دون أن يُولي أدنى انتباه إلى وجودنا.

رفع الجوّال الصغير وجهه وتجمدت ملامحه بتأثر مضحك. حرّك شفّتيه الصغيرتين، وفي الوقت الملائم، بعدما أنهى بنجاح تصفير لحنه الصغير، نظر إلينا بعينين دامعتين وضاحكتين في الآن ذاته، تلوح عليهما أمارات الانتصار. قال أخيراً عندما أنهى الطائر زقزقته وطار بعيداً:

- آه! يا إلهي! إنها خليفة الله! غنت بقدر احتياجها وسبّحت وطارَت عائدة إلى عشها. آه يا عزيزي الطائر! وحق الله هذا صحيح!

نظر بسرور إلينا، ثم ارتبك وصمت وعدّل غفارته، أما أفتونوموف فأشار بيده مجدداً وأضاف بلهجة إرشادية:

- انظروا إلى طيور السماء^(١٨)! نحن أيضاً يا سيدي طيور، لا نزرع ولا نحصد، ولا نجتمع في مخازن. سألته:

- هل درست في المعهد اللاهوتي؟
- درست فيه. بالمناسبة لديّ الكثير لأقوله عن هذا الأمر، ولكن كما يُقال: قليلون من يسمعون. يبدو أن غماماً يلوح في الأفق. إيفان إيفانوفيتش! انهض يا رفيقي! مكتوب على الجوّال طريق بلا راحة. أتمنى لك كل التوفيق.

أوماً برأسه ومضى مسرعاً في طريقه. سار بخطى واسعة ومنتظمة،

(١٨) يشير إلى قول المسيح: «انظُرُوا إِلَى طُيُورِ السَّمَاءِ: إِنَّهَا لَا تَزْرَعُ وَلَا تَحْصُدُ وَلَا تَجْمَعُ إِلَى مَخَازِنَ، وَأَبْوَكُمُ السَّمَاءِيُّ يَتَّقُونَهَا. أَلَسْتُمْ أَنْتُمْ بِالْحَرِيِّ أَفْضَلَ مِنْهَا؟». متى ٦: ٢٦.

متكئًا على عصاه الطويلة، مطوِّحًا بها إلى الخلف مع كل خطوة. أخذت
الريح تُطِيرُ أهداب غفارته، وتُقَوِّس ظهره تحت ثقل الحقيقة. برزت
لحيته إلى الأمام كوتد. بدا الأمر كما لو أن جسدًا محروقًا بالشمس
وجافًا ومسفوعًا قد خُلِقَ خصوصًا من أجل الامتداد الروسي الفقير ذي
القرى الصغيرة المظلمة الممتدة والسحب المتجمعة في السماء.

هز إيفان إيفانوفيتش رأسه بحزن وهو يربط حقيته الصغيرة بيدين
مرتعتين قائلاً:

- إنه عالمٌ حقًا! هو الأذكى! ومع ذلك سيتلاشى بصورة تافهة
مثلي. نطوف، نحن الجوّالين، على مستوى واحد. فليعفُ الله
عنا حتى النهاية.

- لماذا تقول ذلك؟

- أتسألني لماذا؟ كيف ذلك؟ لدى الجوّال الحقيقي حقيقة ظهر
جيدة وعباءة أو قفطان وحذاء طويل العنق. على سبيل المثال،
وباختصار، أداة مناسبة لكل ظرف. أما نحن، فكما ترى بنفسك.
أنا قادم، أنا قادم يا جينادي سيرجيتش. قادم يا سيد حالًا.

سرعان ما لحق الرجل الصغير برفيقه في الطريق. نظرًا لأنني ظننت
أن لديهم أسبابًا خاصة تجعلهما لا يدعوانني إلى صحبتهما، جلست
على التل مجدّدًا، وانهمكت في مراقبة كيف تنبسط خلصة سحابة
مظلمة وثقيلة من خلف الغابة في السماء، بهدوء وإمعان، ثم تقدمت
ببطء وحدي، وأنا أفكر بأسف في أندريه إيفانوفيتش.

بدأت الأجواء من حولي هادئة ومحزنة. تمايلت السنابل
وخشخشت. في مكان ما بعيد جداً عن الغابات أرعدت، وبين الحين
والآخر تتساقط من السماء قطرة مطر كبيرة.

لكن النُّذر مضت سدى. قبالة المساء اقتربت بالفعل من قرية (ك)
ولم تمطر بعد، وظلت السحابة تتقدم بهدوء وتتوعد وتواصل انبساطها؛
الأمر الذي قلَّ ضوء النهار، واقترب الرجيف^(١٩).



(١٩) صوت الرعد في السحب.

لدهشتي الشديدة رأيت إيفان إيفانوفيتش جالسًا على دكة أحد الأكواخ البعيدة في القرية. جلس ماديًا ساقيه الطويلتين إلى منتصف الشارع تقريبًا، وعند اقترابي اكتسى وجهه بتعبير ازدراء وقور.

- ماذا تفعل هنا يا أندريه إيفانوفيتش؟

- أشرب شايًا. أظن أنني في انتظارك؟ لا تتصور ذلك. سحابة في طريقها إلى هنا. سأبتعد.

- ممتاز.

- وماذا عن سادتك؟

- من تقصد بسادتي؟

- هذان الجوّالان! رجال الرب. سوف تُعجب بما يفعلانه في الكوخ المجاور. لا تخجل. انظر من فضلك.

اقتربت من النافذة. بدا الكوخ مكتظًا. في ذلك الوقت كان رجال القرية جميعًا قد مضوا إلى عملهم، ولذلك امتلأ الكوخ بالنساء وحسب. عبرت أمامي تقريبًا مجموعة من الفتيات. النوافذ مفتوحة ومضاءة، وكان بالإمكان سماع صوت أفتونوموف الجلي منها منهمكًا في وعظ المنشقات. سمعت فجأة صوت إيفان إيفانوفيتش الهادئ يقول: «انضم إلينا رجاء!». وقف في زاوية مظلمة عند البوابة.

- ماذا تفعلان هنا؟

- يخدعان الناس. هذا ما يفعلانه. (قالها أندريه إيفانوفيتش بحدة).

سعل الجوّال الصغير والتفت صوب أندريه إيفانوفيتش وقال:

- وماذا يمكن أن نفعل يا سيد؟

مال نحوي وهمس:

- النساء المنشقات يحسبن جينادي كاهنًا هاربًا. لقد حل الظلام،

فماذا بوسعنا أن نفعل يا سيد؟ لا شيء آخر يمكننا أن نفعله. ألن

تدخل؟

- تعال يا أندريه إيفانوفيتش!

أجاب مبتعدًا:

- وما الجديد الذي لم أره من قبل وسأراه هنا؟ هيا ادخلوا وقبّلوهن.

أدرك جيدًا أنني لا أستطيع الدخول إلى هناك، فأنا أحمل صليبًا.

قال إيفان إيفانوفيتش بلوم:

- ونحن أيضًا لا نخلو من الصليبان.

صفّر أندريه إيفانوفيتش بازدراء، وفجأة نظر إليّ بوجه حاد للغاية

قائلًا:

- أتعرف ما مجلس الأشرار؟ (ونظر إليّ نظرة ملغزة وأضاف

بصوت هادئ) أفهمت؟

- لا، لم أفهم. إلى اللقاء. إذا أردت فلتنتظرنني.

- لا يوجد ما يجعلني أنتظر. بعض الناس لا يفهمون.
- لم أسمع نهاية جملته تقريباً لأنني دخلت بصحبة إيفان إيفانوفيتش إلى الكوخ.
- عندما دخلنا سرت حركة خفيفة في المكان. لاحظني الواعظ وتوقف. قال وهو يُفرّق الفلاحات من حوله:
- تفضل. ألا ترغب في كوب شاي؟ السماور موجود حتى لو في قرية أهلها منشقون.
- هل أزعجتك؟
- ماذا تقول؟! يا صاحبة المنزل، السماور، بسرعة.
- سألته شابة ممتلئة واقفة قبالة، ذات عينين سوداوين كالفتح مفعمتين بالحيوية:
- وأنت، ألا تريد بعض الشاي؟
- لو يسمح لي السيد، يمكنني بسرور أن أشرب كوباً آخر.
- قلت له:
- تفضل بالطبع.
- أسمح لي بسيجارة؟
- قدمت له واحدة. أشعل السيجارة، ناظرًا بسخرية إلى النساء المندھشات من حوله^(٢٠). سرت في الكوخ دمدمة ساخطة. سألت شابة بازدراء:

(٢٠) مصدر الدهشة المقصود هو ظنهن أنه كاهن، فكيف يمكن لكاهن أن يدخن؟!

- هل تمص مثلهم هذا الشيء؟
- نعم أمص. الكتاب المقدس يجيز ذلك.
- في أي موضع مذكور ذلك؟ علّمنا!
- أنهى السجارة وألقى عقبها في حوض الماء من فوق رؤوس الفلاحات. قالت مضيعة المنزل وهي تتحرك حول السماور باستياء:
- ويلقي بها أيضًا هكذا!
- ساندتها امرأة أخرى قائلة:
- لا تُلقيها هكذا أيها المؤذي، ستشعل حريقًا.
- حريقًا؟ أنطفئ النار بالموقد إذن بدلًا من البئر؟
- وماذا ظننتن؟ كل شيء يمكن أن يحدث في أيامنا هذه، حتى الكهنة يدخنون.
- بالطبع، بالطبع. صوتك كصوت الجرس. الأجر بك أن تكوني في جوقة أو في دير. تعالي معي.
- مضى إليها لكنها أفلتت منه بمهارة، وانثنى قوامها الجميل في الوقت الذي انخرطت فيه بقية الفلاحات في الضحك والبصق والهروب من الكوخ. قالت فلاحه نحيلة بعينين طفوليتين مفتوحتين على آخرهما، بصوت ساذج ومرتعب:
- يا له من كاهن! معلّم حقًا.
- نعم، سيعلمنا.

قالت زوجة جندي بسخرية مجدداً، وهي تتقدم للأمام وتسند وجنتها إلى يدها السمينة:

- هيا علّمنّا. علّمنّا وصية سهلة ورحيمة.

- نعم، وسوف نتعهد من أجلك.

- حسناً سأعلمك. ما اسمكِ أيتها الجميلة؟

- اسمي هو ما يدعونني به. يدعونني البطة الرمادية، فما شأنك؟

- هذا ما أنتِ عليه فعلاً أيتها البطة الرمادية. أحضروا لنا بعض الفودكا. أعتقد أنه سيدفع.

نظرت باستفسار ومكرٍ إليّ قائلة:

- أتريد ذلك؟ إن أردت فسأجلبها.

قلت لها:

- حسناً، إئتينا بقليلٍ منها.

اندفعت زوجة الجندي خارج الكوخ، ومن خلفها اندفعت امرأتان أو ثلاث أخرى وقد انخرطن في الضحك والتدافع. وضعت صاحبة المنزل السماور على الطاولة بوجه كئيب، من دون أن تنطق كلمة، وجلست على المقعد وأقبلت على العمل. تدلت وجوه الأطفال الشقر من على الأسرة ونظروا إلينا بفضول.

وضعت زوجة الجندي ضاحكة ولاهثة زجاجة تحتوي على سائل أخضر ما، وابتعدت عن الطاولة، ناظرة إلينا بسخرية وتحدّ. سعل إيفان إيفانوفيتش مرتبكاً، ونظرت إلينا النساء غير المتزوجات في

الكوخ، وآمالٌ خفيّةٌ تعتمل في صدورهن. بعد الكؤوس الأولى، رفع
الواعظ أهداب غفارته وأخذ يسير حول البطة الرمادية التي ظلت تتلوى
كالثعبان، مفلّته من مداعباته.

تعال! (لوّحت بيدها ونظرت إليّ بتحدٍّ، واقتربت من الطاولة)
لماذا لا تشرب بنفسك؟ انظر إليهما! إنهما يملآن كل الكؤوس. صب
لنفسك. (صبّت لي كأسًا مبتسمة وقد أخذت تهز كتفيها).

فجأة تردد صوت غير متوقع تمامًا من خلف النافذة: «لا تشرب!».
وبرز من الظلام وجه أندريه إيفانوفيتش ذو الوجنتين العظيمتين.

– أقول لك لا تشرب فودكا!

قالها بمزيد من الكآبة ثم تلاشى مجددًا في الظلام.

ارتجفت الكأس في يد زوجة الجندي ثم انسكبت من يدها. كانت
في هذه اللحظة تنظر إلى النافذة بعينين خائفتين.

– قوة الصليب معنا، فمم نخاف؟

شعر الجميع بالارتباك. نفذت الفودكا، وتمحور السؤال حول ما
إذا كنا سنطلب المزيد أم سنكتفي بذلك. نظر إيفان إيفانوفيتش إليّ
بارتباك خجل، ولكن لم تكن لديّ أدنى رغبة في مواصلة هذه المأدبة.
فهم أفتونوموف ذلك فورًا. قال، مقتربًا من النافذة:

– لقد حان بالفعل وقت الذهاب.

قالت زوجة الجندي، ناظرة بعيدًا بعض الشيء:

– لكنها تمطر في الخارج.

- لا، إنها مجرد غيوم جافة. استعد يا إيفان إيفانوفيتش.
- نهضنا لنعد أنفسنا للمضي. خرج إيفان إيفانوفيتش أولاً. عندما خرجت بعده إلى الفناء المغطى المظلم، أمسك بيدي وقال لي بهدوء:
- هذا الطويل النحيل ينتظرنا عند البوابة.
- وجدت أندريه إيفانوفيتش واقفاً فعلاً عند البوابة. خرج أفتونوموف إلى الشرفة الخارجية، حاملاً حقيبة ظهره، ممسكاً عصاه بيد، وباليد الأخرى زوجة الجندي. لاح كلاهما عند الأبواب التي طالها الضوء.
- لم تسحب زوجة الجندي يدها من يده. قالت في يأس:
- هل اكتفيت سريعاً؟ ظننا أنك ستشرب حتى تشمل.
- انتظريني. سأعود مجدداً، وسأغتنني.
- نظرت إليه وهزّت رأسها.
- إلى أين؟ لن تغتني أبداً. ستظل هكذا، خاوي الجيب.
- حسناً، لا تنعبي أيتها الغرابة! الأفضل من ذلك، قل لي هل لا يزال الشماس إيريني يعيش في باحة الكنيسة؟
- شوروفسكايا. نعم لا يزال هنا. الآن هو في السوق. هل تريد شيئاً؟
- كانت لديه ابنة تدعى جرونيوشكا.
- إنها متزوجة.
- في مكان بعيد؟

- تزوجت من شماس في قرية في فوسكرينسكوي. تعيش العجوز الآن وحدها.

- أتقولين إن إيريني لم يعد بعد؟

- لم أره.

- وهل هو ثري؟

- لا، يعيش كالجميع.

- حسنًا. وداعًا، آه يا جلاشا^(٢١)!

- لا تذهب إليها. إنها طيبة ولكنها ليست لك. اذهب حقًا إلى طريقك. لا يوجد هنا ما تبحث به.

لاح في الصوت القروي الجميل شيء ما يشي بالندم الرقيق.

عندما خرجنا من البوابة انضم إلينا أندريه إيفانوفيتش بوجهه الكئيب، وفي الوقت نفسه مر بنا أفتونوموف وسبقنا في صمت. قال أندريه إيفانوفيتش بحزن:

- ألم يكن عليك أن تمكث هناك حتى الصباح، بينما أنا في انتظارك هنا؟

أجبت به برودة:

- كف عن هذا الهراء!

- كيف يُفترض بي فهم ذلك؟ بأي منطق؟

(٢١) جلاشا هي جرونيوشكا.

- يمكنك ببساطة أن تمضي لحال سبيلك إذا كنت مستاء.
- شكرًا على كلامك الطيب! لا أوافق على ترك رفيقي. أفضّل
المعانة على ترك رفيقي. إنه العام الثالث ونحن معًا يا إيفان
أنيسيموفيتش. هذا مجرد هراء. لقد شربنا وشربنا واستمتعنا
بالصحبة الجيدة.

- وماذا إذن؟

- لقد خلعوا عني صديرتي. كلفتني ثلاثة روبلات وعشرين
كوبيكا. كانت جديدة.

قال إيفان إيفانوفيتش مسرعًا بصوت مضطرب:

- إذا كنت تلمح إليّ أنا وجينادي فهذا أمر دنيء حقًا. ماذا بك؟ إذا
كانت لديك شكوك يمكننا أن نتقدم أو نتخلف عنكما.

قلت مُطمئنًا المسكين:

- من فضلك لا تُلقِ بالاً.

سألني أفتونوموف فجأة، وقد توقف في الطريق:

- ما الأمر؟ علام تتجادلان؟

- إنه يشك فينا. الرحمة يا رب! فليعفُ عنا الرب، ولكننا لسنا
لصّين.

حدّق جينادي في الظلام إلى وجه أندريه إيفانوفيتش قائلاً
بحفاف:

- آه! السيد الطويل والنحيل! الأمر كذلك إذن! طوبى لمن لا يأمن
الناس ويرعى من كان مثله وجاساً! الطريق واسع.

وسرعان ما مضى مجدداً إلى الأمام مسرعاً، وهرع من خلفه رفيقه
الصغير. ظل أندريه إيفانوفيتش واقفاً في مكانه لوضع لحظات مذهولاً
من أن الجوال حدثه حديثاً مسجوعاً. كان سيلحق به لكني منعه. قلت
له بحزن:

- ما الأمر معك حقاً؟

قال بأسى:

- أنشعر بالأسف على رفيقك الطيبين؟ لا تقلق رجاء. لن يذهبا
بعيداً.

بالفعل، خلف الأكواخ الأخيرة للقرية وجدت على الطريق
أحدهما؛ وجدت إيفان إيفانوفيتش وحده. وجدته واقفاً في منتصف
الطريق، يتنفس بصعوبة ويسعل، ويده على صدره. سألته بتعاطف:

- ماذا بك؟

- آخ! آخ! إنه الموت. لقد مضى جينادي بعيداً. لقد أمرني ألا ألحق
به، وأن أسير معك. لا يمكنني اللحاق به.

- ولكن قل لي، هل تعرف الطريق الذي سلكه؟

- الطريق كبير. لقد مضى في اتجاه ما.

سرنا في الظلام. نبح كلب خلفنا. التفثُ ورأيت شعلتين أو ثلاثاً
في القرية التي فارقتها، وسرعان ما توارى المنظر في قلب الظلام.

كانت ليلة هادئة وقد خلت السماء من النجوم. لا يزال الأفق يلوح في مكان ما كخط غامض يجول تحت الغيوم، وقد تلوّى تحته سديم كثيف لا نهائي وغير محدد، بلا أشكال أو سمات واضحة. سرنا في صمت لمدة طويلة بعض الشيء. بين الحين والآخر يتنهد الجوّال في خجل ويحاول كبح سعاله. يقول: «لا يمكنني أن أرى أفقنوموف». وينظر من حوله عاجزاً في ظلمة الليل الحالكة.

قال أندريه إيفانوفيتش بلهجة استياء واضحة:

- نحن لا نراه، ولكن لا بد أنه يرانا.

بدا الطريق شريطاً غامضاً أو جسراً ممدوداً فوق هاوية. كل شيء من حولنا بدا أسود وغامضاً. هل ظهر شريط مضيء في الأفق؟ لا أثر له الآن. هل كنا حقاً منذ فترة قصيرة في كوخ يضج بالضحك والحديث؟ هل ثمة نهاية لهذه الليلة وهذا الحقل؟ أسرنا طويلاً للأمام أم أن الطريق ينزلق بعيداً من تحت أقدامنا، مثل شريط لا نهاية له، بينما نحن طوال الوقت في نفس المكان، وفي البقعة المظلمة المسحورة ذاتها؟ تنبعث فرحة خجولة في نفسي عندما يشتد خريز جدول ما أمامنا، ثم يتلاشى الصوت من خلفنا، وعندما تحرّك الريح فجأة شجيرات الصفصاف على جانب الطريق ثم يتلاشى الحفيف في إشارة إلى أننا اجتزناها بالفعل.

قال إيفان إيفانوفيتش بهدوء على غير العادة:

- لقد حل الليل. أحرق من يجوب الطرقات في ليلة كهذه. ماذا أحتاج إلى أكثر من ذلك؟ عملت في النهار واسترحت وشربت الشاي وصليت لله، وأتى وقت النوم. لا، لا يروقني ذلك. لتسكع في الطرقات! يروق لنا ذلك. حل منتصف الليل ولم نرشم حتى الصليب على جباهنا. نحن مصلون فعلاً!

لم أجب بشيء. من الواضح أن أفكار التوبة ظلت تطوف في رأس أندريه إيفانوفيتش. قال بكآبة:

- لا يمكن للقرويات أن يعلمتنا سوى القليل. نحن لا نعيش في منزل، ولكن إلى ماذا نحتاج؟

تردد فجأة صوت الجوّال الصغير الكئيب:

- ألا يرى أحد أفتونوموف؟

تمتم أندريه إيفانوفيتش:

- لا، لا أراه.

قال الجوّال في حزن عميق:

- يا لبليتي! لقد تخلصي راعي عني!

شَابَ صوته يأس شديد حتى إننا وجدنا أنفسنا تلقائياً ننظر إلى الأمام، محاولين العثور على أفتونوموف المفقود.

فجأة طقطق شيء ما بعيداً، كما لو أن قدمًا تطأ جسراً صغيراً مهالگًا. قال أندريه إيفانوفيتش:

- إنه هناك! لقد انعطف يسارًا.
- لا بد أن الطريق قد انعطف يسارًا.
- بالفعل وجدنا الطريق ينعطف قريبًا. انعطفنا يسارًا نحن أيضًا^(٢٢).
- تنهد إيفان إيفانوفيتش بارتياح.
- سأل أندريه إيفانوفيتش:
- علام تنوح؟ من هو بالنسبة إليك؟ أخوك هو أم ماذا؟ غريب أن تطلب عفوه!
- إنه أكثر من أخ لي. من دونه سأضيع حتمًا، فأنا لا يمكنني أن أطلب صدقة بنفسى، وفي حالة كحالتنا هذه سأهلك من دونه حتمًا.
- لماذا تتسكع هنا وهناك؟
- لزم الجوّال الصمت كما لو أن الإجابة عن هذا السؤال تصعب عليه.
- أبحث عن مأوى في أحد الأديرة. منذ صغري وأنا منجذب لحياة الدير.
- يجدر بك أن تعيش في دير إذن.
- قال إيفان إيفانوفيتش بصوت خجل يكاد لا يُسمع تقريبًا:
- لديّ زلّة.

(٢٢) في هذا الوقت كانت الطرق غير ممهدة، ووسط الثلوج تصعب رؤية المسار ومن الممكن أن يتيه المرء بسهولة.

- أظن أنك تشرب كثيرًا.

- بالضبط. فسدت منذ صغري.

- أمر سيئ! اللوم في ذلك على الشيطان.

- نعم، الشيطان هو الملووم بالطبع. سابقًا، عندما كان الناس

أقنأنا^(٢٣) عانوا من كثرة العمل في ظل هذه الحياة الرتيبة.

يمكننا أن نقول إن جميعهم رأوه حينها فعلاً. أما الآن فضعفنا هو

السبب. الناس جميعًا صاروا منجذبين للخمر.

وافقه أندريه إيفانوفيتش قائلاً:

- نعم. اليوم صار الأمر أسهل كثيرًا على الشيطان النجس. وحق

الله إنه يعيش بيننا. كأنهم يقولون له الآن: استلقِ يا عزيزي على

الموقد وسنأتي إليك بأنفسنا، وسيجلب كل منا الآخر. كل ما

عليك فعله هو أن تقبلنا وحسب.

أخذ الجوّال نفسًا عميقًا وقال بحزن:

- آه! يا لصدق ما تقول! سأخبرك عن نفسي. (همس كما لو

أنه لا يريد أن يسمعه شخص ما واقف في ظلام الليل على

جانب الطريق) أتعرف من قضى عليّ؟ أُمّي العزيزة والأب

رئيس الدير.

(٢٣) نظام القنانة هو النظام الذي عاش فيه الفلاحون إبان الإقطاع، حيث يُجبرون على العمل ويتعرضون للعقوبات الجسدية من السيد، ويُباعون ويُشترَوْنَ. ألغى النظام في روسيا في عام

- ماذا؟ (قالها أندريه إيفانوفيتش بتعجب وبصوت هامس هو الآخر).
- هذه هي الحقيقة. أعلم أنها خطية أن يدين المرء أمه الراحلة، عسى أن ترقد في سلام في ملكوت الله! (خلع قبعته ورشم علامة الصليب) لكنني لا أزال أفكر: لو كانت قد علّمتني حرفة، لربما صرت إنساناً كبقية الناس. لكنها لم تفعل ذلك، بل أرادت أن يحظى ابنها بحياة سهلة. عسى أن يعفو عنها السيد الرب!
- أكمل أكمل. (شجّع أندريه إيفانوفيتش على مواصلة الحديث).

واصل إيفان إيفانوفيتش بحزن:

- هكذا هو الأمر بالضبط يا سيد. في الأيام الخوالي - كما تقول الكتب - كان الآباء يعارضون، ويذهب الأبناء سرّاً إلى صوامع الأديرة لينفذوا مآثرهم. أما أمي فقد سلّمتني بنفسها إلى الدير لأصير شماساً كما يقولون.

- حسناً، حسناً.

- عليّ أن أوضح أنه في هذا الوقت كانوا يُرقّون الشمامسة إلى مرتلين للمزامير وما إلى ذلك. ولكن في زمني أبطلوا هذا الإجراء.

- هكذا هو نظام الدرجات.

- نعم. قالت أمي مرة أخرى: فلتمكث في الدير حتى يتغير الأمر. الحياة سهلة في الدير، كما أن رئيس الدير يحبك. كانت هذه هي الحقيقة. أحبني فعلاً الأب رئيس الدير وضمّني إلى طاعته. لكن

إذا كان المرء منحوسًا فلا بد أن يتحول حظه الحسن إلى نحس .
سأقول الحقيقة: لم يكن الشيطان هو من أغواني يا سيد. بل ملاك
هو من أهلكني.

قال أندريه إيفانوفيتش بدهشة:

– ماذا تقول؟

– أقول لك الحقيقة. كان رئيس الدير طيبًا ووديعًا، وعلاوة على ذلك
يعيش حياة صارمة. لكنه عانى من خطية سرية: بين الحين والآخر
كان يشرب. يفعلها في هدوء وبنيل. يخفي نفسه عن أنظار الجميع
ويشرب لثلاثة أو أربعة أيام وحسب. ثم يتوقف على الفور. كان
صلبًا، لكنه في هذه الحالة يشعر بالملل، وحينها يستدعيني
ويقول: «نفذ نذر طاعتك يا فانيا واشرب معي حزنًا على نفسي.
ابق معي أيها الطفل البريء؛ ابق معي أنا الخاطئ اليأس». أجلس
معه وأسمع كيف يحدثني في ضعفه ويبيكي. كنت ضعيفًا بالطبع،
وحينما لا أتحمل أغفو. قال لي مرة: «اشرب يا فانيا لتشجّعني».
وصب لي كأسًا. «اشرب بعض القطرات وحسب. ولكن فلتقسم
لي إنك لن تشرب أبدًا، ولا قطرة واحدة، من دوني».

التفت أندريه إيفانوفيتش إليه باهتمام قائلاً:

– هكذا هو الأمر إذن!

– أقسمت له بالطبع وصب لي كأسًا. هكذا بدأ الأمر. بصرف النظر
عن مقدار ما يشربه كان الأب رئيس الدير إنسانًا قويًا، أما أنا، فالتعب

بعد ثلاث أو أربع كؤوس لم تقوَ قدماي على حملي. تمالك نفسه ونهاني بحدة عظيمة عن الشرب، ولكن فات الأوان. لم أشرب في حضوره، ولكنني حزت مفاتيح الخزانة. صرت أتسلل إليها خفية، وشربت مرة أخرى كمية أكبر ولم تقوَ قدماي مجدداً على حملي. ظن رئيس الدير أنها من آثار المرة الأولى بسبب ضعفي. لكنه نظر إليّ ذات مرة نظرة متفحصة وقال: «فانيوشا، أتريد كأساً؟». ارتجف جسدي كله من الاشتهااء. خَمَن الأمر. أمسك عصاه ووضعها على رأسي برفق. كان قوياً وخشي أن يؤذيني. لكن هذا لم يُجدِ معي. علاة على ذلك رأى أن ضعفه هو ما يدمّرني. استدعاني ذات يوم وقال: «اعفُ عني يا فانيوشكا لكن عليك أن تجتاز التجربة وإلا ستهلك. غادر! تجوّل! اقبل الحزن! عسى أن تُشفى! سأصلي هنا من أجلك. عُد بعد عام في التاريخ الفلاني وسأقبلك مثل الابن الضال». باركني وبكى. استدعى الراهب المسؤول عن الثياب الرهبانية، وأمره أن يجهز ما أحتاج إليه في الطريق. صلى عليّ بنفسه صلاة الرحيل، ومضيت. مضيت أنا عبد الله في ٢٩ أغسطس في عيد قطع الرأس^(٢٤) لأبدأ عمل التجوال العظيم.

صمت الراوي مجدداً ليلتقط أنفاسه وقد أخذ يسعل. توقف أندريه إيفانوفيتش بتعاطف، ووقف ثلاثتنا في الطريق المظلم. في النهاية التقط إيفان إيفانوفيتش أنفاسه، وأكملنا.

(٢٤) الإشارة إلى ذكرى قطع رأس يوحنا المعمدان في القصة الإنجيلية (يحيى بن زكريا في القصة القرآنية).

- هكذا سرت. تجولت صيفًا وشتاءً. بدا الأمر صعبًا وقبلت الحزن. آه! آه! مضيت إلى أديرة مختلفة. بعضها لم أدلف إلى مدخله، وبعضها لم يلائمني. ديرنا يتلقى الأموال من الدولة وثري، ومن ثم تعودت على الحياة الحلوة. لم يقبلوني بعدها في دير آخر مثله تدعّمه الدولة، قبلوني في دير يعيش فيه الرهبان حياة شركة معًا: دير القديس كيريلو (كيرلس) في نوفوزيرسكوي، وكان الأمر مريعًا. الشاي قليل، ولا يوجد تبغ على الإطلاق، والرهبان جميعهم من الفلاحين. كان نذر الطاعة هناك شاقًا، والعمل رهيبًا.

قال أندريه إيفانوفيتش:

- يصعب ذلك بالطبع بعد حياة سهلة ومريحة.

تنهد إيفان إيفانوفيتش قائلاً:

- أقول لك الحقيقة: يفوق ذلك احتمالي تمامًا. أعباء لا أستطيع تحمّلها. بدا لي أنه لا يوجد أي شيء عظيم في قداسة الرهبنة الجماعية. أعداد كبيرة ولا يوجد مرتلون حقيقيون. أصواتهم وثرغاء الماعز واحد.

قال أندريه إيفانوفيتش بلهجة تنم عن القناعة:

- هذا هو مكان القداسة.

اعترض إيفان إيفانوفيتش بلهجة لا تقل قناعة:

- لا، اسمح لي أن أقول لك إن الأمر ليس كذلك. لا تتمثل العظمة الرهبانية في ذلك يا سيدي. يجب أن يكون الراهب نحيلاً،

رأسه كورقة نبات معلقة على جسد كساق النبات. يضبط نفسه.
هؤلاء هم زينة الحياة الرهبانية، ولكنهم قليلون. الراهب المعتاد
أملس، ذو وجه نظيف وصوت مخملي. مثل هؤلاء الرهبان هم
من يُقدّرهم دافعوا التبرعات والنساء. أما الراهب الفلاح، فدعني
أقولها لك بوضوح، لا يُكرّمونه بأي رتبة.

قال أندريه إيفانوفيتش، مندهشًا بعض الشيء من هذا البيان الواثق
من شخص مختص:

- ماذا حدث بعد ذلك؟

- أتسأل: ماذا بعد؟! (قالها الجوّال بحزن) ظلت أجدول لمدة
عام. أنهكت وبليت. أصعب شيء هو معاناة ضميري، ولذلك
لا أجدّ على طلب صدقة. ظلت في انتظار أن ينتهي هذا العام
وأعود إلى مكاني، أعود إلى صومعتي. تذكرت الأب رئيس الدير
كما لو أنني أتذكر أبي الحقيقي. لقد أحببته بشدة. أخيرًا حل يوم
٢٩ أغسطس. دخلت ساحة الدير، ولكنني شعرت بالاضطراب.
وجدت الرهبان المبتدئين عند البوابة. عرفوا بوصولي: «هل
عدت أيها الجوّال؟». سألتهم: «هل رئيس الدير حي معافي؟». قالوا:
«لقد تأخرت. دفناه منذ فترة طويلة. نال بركة الرحيل مع
حلول عيد القيامة. تذكرك وبكى عليك وأراد أن يكافئك. لدينا
الآن رئيس دير جديد، إنه بربري. يجدر بك ألاّ تراه».

فجأة تذكر وقال بقلق، وقد شاب صوته خوف وحزن:

- ولكن أين أفتونوموف؟

حدّق أندريه إيفانوفيتش إلى الظلام وفجأة أمسك بيدي وقال:

- انتظر، لن نمضي إلى هناك.

- ماذا حدث؟

- أنا محق. ليس من هذا الاتجاه. انتظراني. سأركض إلى هناك
لأثبت الأمر.

وتلاشى سريعاً في الظلام. وقفت بصحبة إيفان إيفانوفيتش وحدنا
في الطريق. عندما تلاشت أصوات خطوات الإسكافي^(٢٥) لم نسمع
سوى حفيف الليل الهادئ. تناهى إلينا غناء^(٢٦) العشب من مكان ما،
وبين الحين والآخر يتعالى صوت مرعة غيط تنتفض بانزعاج، منتقلة من
مكان إلى آخر. تعالى من بعيد جداً نقيق الضفادع من أحد المستنقعات.
بالكاد رأينا الغيوم ممتدة في السماء. قال إيفان إيفانوفيتش بكآبة:

- يبدو أنه مثل رفيقي، يحب المشي ليلاً. ما الجيد في ذلك؟ أليس
ذلك عمل النهار؟

- هل كان هو الآخر في الدير؟

(٢٥) الإسكافي هو صديقه أندريه إيفانوفيتش.

(٢٦) صوت الريح في العشب والنبات الملتف.

- ذهب إلى الدير (تنهد وقال) إنه من أسرة جيدة. كان أبوه شماسًا في مدينة «إ.م». ربما سمعت عنها. الأخ كاتب في قسم الشرطة، والخطيبة ملائمة.

- لماذا لم يتزوج؟

- في هذا الوقت ضل طريقه بالفعل. هرب، ولكنه لم يكن قد تحول إلى جوال بعد. توفرت لديه ثياب الجوال لكنه لم يبدأ الطواف. تظاهر أنه عريس وتقدم إليها. قبلوه. أحبته الفتاة، ولم يعارض والدها. آخ! آخ! إنها خطية بالطبع. لقد خدعهم. في بعض الأحيان، ما إن يبدأ هذه القصة حتى تبكي، وفي أحيان أخرى يحكيها لك فتبدو مضحكة.

طراً شيء غريب على إيفان إيفانوفيتش. انفجر ضحكاً ثم بدا كما لو أنه يخنق، وغطى فمه بيده. في البداية صعب عليّ أن أدرك أنه يضحك، لكن اتضح أنه يضحك فعلاً. ضحك ضحكاً هستيرياً وخجولاً في الآن ذاته، وقد تحول إلى نوبة سعال. بعد أن هدأ إيفان إيفانوفيتش أضاف ببعض الأسى:

- الحكاية وما فيها أنه يروي القصة كل مرة بشكل مختلف، وحينها لا تفهم هل هذه الحقيقة أم لا.

- أيكذب؟

- لا، الأمر ليس كذلك، لكنه لا يحكي بدقة كاملة. يبدو أن الحقيقة هي...

- لكن ماذا يقول بالضبط؟

- يقول إن أباه الشمس خبيث. رآه شابًا ولا يفعل شيئًا حقًا. اعتاد السفر إلى المدينة بدعوى أنه ذاهب إلى السوق، وترك الجدة العجوز وحدها في المنزل، وقد أمرها أن تراقبه بصرامة. لم يعيش أفتونوموف معهما بالطبع، بل عاش في القرية عند خابزة قربان الكنيسة، ولكن واطب على زيارة منزل خطيبته. واطبا على الجلوس على ضفة النهر كل يوم تحت مراقبة الجدة العجوز. ذات مرة رأى عزيزي أفتونوموف اثنين سكرانين قادمين من المدينة في عربة. اقتربا وإذ بهما أبوه الشمس وشقيقه الأكبر الكاتب بقسم الشرطة. ما إن رآهما حتى وجدهما قد اندفعا صوبه وأخذوا يضربانه. الأمر مفهوم: أخوه يضربه بسبب هروبه من المعهد وأبوه الشمس يضربه بسبب خداعه والخزي الذي جلبه له.

تنهد إيفان إيفانوفيتش ثم أكمل:

- نجى بصعوبة، فهما قاسيان، وعلاوة على ذلك كانا ثملين. اندفع إلى الخابزة وتناول حقيبة الظهر واندفع إلى الغابة. منذ هذا الحين وهو يجول. لكن في مرة أخرى يحكي القصة بطريقة مختلفة.

اقترب مني وشبَّ على أصابع قدميه، وقد أراد أن يخبرني بأمر ما سري، ولكن فجأة ظهر بالقرب منا من قلب الظلام أندريه إيفانوفيتش. اقترب منا مسرعًا وقد لاحت عليه نظرة عابسة. تنحى بي جانبًا وقال بهدوء:

- تعال هنا، لقد تورطنا معهما.
- ما الأمر؟
- أفتونوموف، هذا الراهب، يبدو أنه مضى ليسرق شيئاً. سوف نتورط في أمر لا يخصنا.
- كفى يا أندريه إيفانوفيتش!
- كفاكما أنتما! أسمعت كيف ظل يجمع المعلومات في القرية من زوجة الجندي؟ معلومات عن الشماس؟ ظل يسأل أهو في المنزل أم رحل؟
- نعم، أتذكر.
- أتذكر أين يعيش الشماس؟
- أظن في فناء الكنيسة.
- نعم، هو فناء الكنيسة. (قالها إيفان إيفانوفيتش بشماتة، ملوِّحاً بذراعه إلى الأمام في الظلام).
- وماذا في ذلك؟
- وسمع أيضاً أن العجوز بقيت هناك وحدها، وقد ذهب إلى هناك. لقد طاف حول الساحة وأخذ يستطلع الأمر. سترى بنفسك. هذا هو الشخص الذي أردت أن تستبدله بصديقك القديم. لو لم يكن الجسر الخشبي قد طُقطق تحت قدميه لكنا قد مضينا في طريقنا. لقد استدرت قليلاً. دعنا نمضي. دعنا نمضي في هدوء.
- أحدهم ينسل خلفنا في حزن. التفت إليه أندريه إيفانوفيتش وقال:

- حسنًا، فلتمضِ معنا يا تلميذ رئيس الدير، فماذا يمكننا أن نفعل بك؟ أنت تحب رفيقك.

بعد أن عبرنا الجسر صعدنا التل المرتفع بحدة واقتربنا من فناء الكنيسة. بان ضوء ضعيف على التل من بين أوراق الشجر. رأيت جدرانًا بيضاء لمنزل صغير بارز على حافة الجرف، ومن خلف المنزل لاحت الخطوط العريضة لبرج جرس الكنيسة وكأنها ممزقة. كان بوسع المرء أن يرى النهر إلى اليمين بالأسفل قليلًا. قال أندريه إيفانوفيتش:

- ها هو! أترى أنه؟

على مقربة منا، بين الحديقة الأمامية والجرف، بالقرب من مظلة مغطاة بأوراق الشجر، بان جسد أحدهم. بدا أنه رجل عالق ومتشبث بالسياج، يلتمس النظر من بين الشجيرات. في ضوء النافذة المنيرة، وفي أعماق الحديقة الصغيرة، رأيت مورمولكا^(٢٧) حادة الأطراف وعنقًا ممدودًا ووجه أفتونوموف الجانبي الجميل. انسكب الضوء على أوراق الشجيرات وزهور الليلك. اقتربت بضع خطوات ورأيت وجه امرأة عجوز من النافذة، ترتدي قبعة ونظارة. تمايل الرأس كما لإنسان يعاني من الأرق، والخدر يتسلل إلى يديه. من المحتمل أن العجوز كانت في انتظار عودة سيد المنزل.

فجأة تنبعت العجوز. تردد من الظلام نداء: أوليمبيادا نيقولايفنا! مدت العجوز رأسها من النافذة لكنها لم ترَ أحدًا. مضت دقيقة في صمت، ثم تناهى من الظلام مجددًا نداء: أوليمبيادا نيقولايفنا!

(٢٧) قبعة روسية تقليدية قديمة.

لم أتعرف حينها على صوت أفتونوموف، فقد بدا شديد اللين والخجل. قالت العجوز فجأة:

- من هناك؟ من ينادي؟

- أنا أفتونوموف. ألا تذكريني؟ لقد عرفنا بعضنا.

- أفتونوموف؟ لم أعرف أحداً يُدعى أفتونوموف. سأنادي أهل البيت الآن. آه! فيدوسيا! فيدوسيا! تعالي بسرعة!

- لا تنادي أحداً يا أمي. لن أزعجك، أنسي أفتونوموف؟ اعتدت دعوتي حينها جيناشا^(٢٨).

نهضت العجوز من مكانها، وتناولت شمعة وشبت من النافذة بها. لم تكن هناك ريح. ظل اللهب ثابتاً مضيئاً الشجيرات وحوائط المنزل والوجه المتجدد للمرأة العجوز المرتدية نظارة وجهتها العالية.

- يبدو صوتك مألوفاً. أين أنت؟ أظهر نفسك أيها الطيب.

رفعت الشمعة وسقط شعاع من الضوء على أفتونوموف. في البداية ارتدت العجوز، ولكن في هذه اللحظة انفتح باب الغرفة ودخلت امرأة أخرى. ابتهجت العجوز وأضاءت بلهب الشمعة أفتونوموف مجدداً، وقالت بضراوة:

- حسناً، العريس! لا شيء يُقال، لماذا تتسكع أسفل النوافذ هنا؟

- أمر من هنا وحسب يا أولمبيادا نيقولايفنا.

(٢٨) تدليل جينادي.

- لا يهم سواء تمر وحسب أم لا . سيعود السيد الآن وسيطلق كلابه عليك .

أغلقت النافذة وأسدت الستارة. زال الضوء من على الشجيرات فورًا وتلاشى جسد أفتونوموف في الظلام.

فكرنا نحن أيضًا في التراجع وهبطنا التل. في غضون بضعة دقائق سمعنا قرع الجرس. من الواضح أن أحدهم أراد أن يلفت الانتباه إلى وجود أناس في فناء الكنيسة.

سار أندريه إيفانوفيتش صامتًا مستغرقًا في أفكاره. ركض إيفان إيفانوفيتش لاهثًا يحاول تمالك نفسه من نوبات السعال. عندما قطعنا مسافة كافية توقف وقال مجددًا بحزن لا يوصف:

- لقد فقدنا أفتونوموف.

وشى صوته بآس جعلنا - أنا وأندريه إيفانوفيتش - نشاركه فيه، وبعد أن توقفنا على قارعة الطريق بدأنا نبحث في الظلام. قال أندريه إيفانوفيتش، محدقًا بعينين كعيني الوشق: «إنه قادم».

بالفعل، سرعان ما بدأ أحدهم يقترب منا من الخلف، وبدأ الأمر بالضبط كما لو أن شجيرة تتحرك. علّق أفتونوموف على حزامه وكتفيه حزامًا كاملة من زهور الليلك، وحتى المورمولكا رُصّعت كاملاً بالزهور. عندما وصل إلينا لم يقف، ولم يُعبّر عن فرحة أو اندهاش، بل واصل السير، والفروع تتمايل حوله في أثناء سيره بشكل غريب. قال بصوت طنان كممثل:

- حسن هو السير في الليل يا سيد. يكتنف الضباب الحقول. انظروا إلى هذا البستان على جانبنا. تأملوا هذا الهدوء، والعندليب ينشد أغنيته. (تحدث كما لو أنه يلقي خطبة، ولكن بانث في صوته أمارات التأثر). ألا تريد يا سيد غصناً من حديقتي الصغيرة؟ ومد لي بإيماءة مسرحية غصناً من الليلك.

على جانب الطريق واصل العندليب شدوه بخجل وتردد. من مكان ما بعيد، استجابةً لجرس الكنيسة، تردد ببطء رنين وتصفيق تريشوتكا. في مكان ما في السهل المظلم نبحت الكلاب. ازداد الليل كثافة وبدأت تنبعث رائحة المطر.

قال أفتونوموف فجأة:

- أعتذر عن افتراقي عنكم في باحة الكنيسة. يعيش أحد معارفي هنا. لو كان في المنزل لنعمنا جميعاً بالمأوى والطعام. طلبت مني العجوز أن أقيم الليلة، ولكن السيد غير موجود.

كاد إيفان إيفانوفيتش يختنق مجدداً. شخر الإسكافي ساخراً.

ربما خمن أفتونوموف أننا رأينا أكثر مما يعتقد، ومن ثم التفت إليّ وقال:

- لا تُدن يا سيد كي لا تُدان. نفس هائمة في الظلام يا سيد. (أضاف بحسم). صدّقني في وقت ما سأزور هذا البيت، وسيستقبلونني، وحينها...

- ماذا سيحدث حينها؟

- آخ! سيصنعون وليمة لنا. سنشرب حتى ننسى أنفسنا. حينها سأشمت في هذا المكان.

- لماذا؟

- هذا المكان يجب أن يكون كغيره، ومع ذلك يا سيد، نفسي منجذبة إليه. إنه الماضي يا سيد!

وتقدم إلى الأمام بسرعة أكبر.

مررنا بالقرية الصغيرة وحاذينا كوخها الأخير. حدثت النوافذ الصغيرة إلى الحقل كالأعمى، وكان الجميع في الكوخ نائمين.

توجه أفتونوموف فجأة صوب النافذة، وطرق بحدة على إطارها. لاح وجهه ما خلف الزجاج. تردد صوت مكتوم قائلاً:

- من هناك؟ (والتصق وجهه خائف بالنافذة الصغيرة). من يأتي في هذا الوقت من الليل؟

هتف أفتونوموف بصوت خفيض وحاد ومهدّد: «ششش!». ومد رأسه المزيد بالغصون صوب النافذة، فتلاشى الوجه الخائف من خلفها. واصلت الكلاب نباحها في القرية الصغيرة، وصفق الحارس بالتريشوتكا، وبدت الساحة المظلمة في حالة تنبه خجول. رنت مجدداً أجراس الكنائس النائمة، غير مرئية في السديم، كما لو أنها تدافع عن الباحة المسالمة من عدو خفي وشرير. بدا الأمر كما لو أنها شعرت أن شخصاً في مكان ما في كنف الظلام يمثل لها تهديداً ما، وأن ثمة حيوات قد فسدت بدرجة ميؤوس منها تتسكع بالقرب منها في جنح الظلام.

واصلنا السير لأكثر من ساعة في الحقول المظلمة. تملّكني الإنهاك ولم تعد لديّ رغبة في التحدث مع أحد ولا سماع أحد. في البداية كنت لا أزال أفكر، وحاولت أن أتصور ملامح أوجه رفاقي في هذا الظلام. نجحت في تصور ملامح أندريه إيفانوفيتش الذي أعرفه جيدًا منذ فترة طويلة، ونجحت بدرجة نسبية في تصور ملامح الجوّال الصغير، أما أفتونوموف فنسيت ملامحه تمامًا، ولم أستطع إعادة تذكر هذه الملامح بينما أنظر إليه الآن في جنح الظلام. بدا لي أفتونوموف الذي كان في كوخ الشماس وأفتونوموف الأمس شخصين مختلفين.

بعد ذلك ازدادت أفكارني ارتباكًا. أتجول منذ بضعة أيام بالفعل في هذا الليل البهيم والصمت والطرق المحروثة العسيرة، أو بالأحرى اللاترطق... كل هذا أنهكني بشدة وبدأت أنسى أشياء في أثناء السير. كنت في حالة نصف واعية تجعل أحلام يقظة خيالية تحوم حولي في الظلام وتتشابك بشدة مع الواقع. لكن الواقع بالنسبة إليّ تمثل كله في وحل مظلم وثلاثة أجساد ضبابية تسير خلفي أو تتجاوزني في الطريق، تبعها في حالة غير واعية تقريبًا.

عندما استفقت من حالتي هذه في وقت ما وجدتهم واقفين يتجادلون عن شيء ما في الطريق. قال الإسكافي غاضبًا، ولكن بوهن: - انتبهوا.

أجابه الجوّال:

- شكرًا لك على التنبيه. لم أكن لألاحظ الأمر. بالمناسبة، ألا

تعرف يا سيد كيف نخرج من هنا للطريق؟

حدقت إلى الظلام بتكاسل. رفعت طاحونة سوداء ضخمة أجنحتها

فوقنا، ولاحت طواحين أخرى بين السحب وخلفها وعلى الجانبين. بدا

الحقل مليئًا عن آخره بطواحين ترفع أجنحتها لأعلى مع تهديد صامت.

تمتم أندريه إيفانوفيتش بغضب:

- بسبب هذا الشيطان تهنا طول الليل.

قال أفتونوموف:

- فلتصمت قليلًا أيها الطويل النحيل. أسمع؟

سأل أندريه إيفانوفيتش:

- أصخب هذا؟

أجابه أفتونوموف مسرورًا:

- صحيح. العجل يدور والجدول الصغير يعبث.

- أبعيد ذلك؟

- الطريق طويل، ولكننا سوف نقطع طريقًا مختصرًا.

- حاذر أن تهبط بنا في مستنقع أيها الشيطان.

مرة أخرى حملتني قدماي إلى مكان ما في الظلام، متبعمًا الأجساد

الثلاثة المظلمة. تعثرت في محراث أو ربما روابٍ ما ألقت بي للأمام،

أو ربما إلى الجانب. إذا قابلت في طريقي وادياً أو نهراً، فربما بهذه الطريقة أجد نفسي سقطت في القاع. من وقت لآخر رفرفت شظايا غريبة من الأحلام وتطايرت من رأسي في ضباب لا معالم له.

في النهاية توقفت عن التعثر في الروابي. شعرت أن الطريق استوى تحت قدمي، وتناهى إلى أذني ضجيج منتظم ومبهج. تدفقت المياه وخرخرت وتوجهت صوت مكان ما، وفارت واهتاجت، وكأنها تحكي عن شيء مثير للاهتمام لكنه شديد الغموض. بعد ذلك صار الضجيج خلفنا، لكنه اشتد قوة فجأة، كما لو أن المياه قد اخترقت سدًا. استفتقت مما أنا فيه وتلفتت حولي مندهشًا. لحق بي من الخلف أندريه إيفانوفيتش، وأمسكني من يدي وسحبني للأمام.

- أفق. بهذه الطريقة ستنام وأنت سائر في الطريق. لقد تورطنا مع شيطان، فليسامحنا الرب. إذا جاء الفلاحون إلينا فسيلوون أعناقنا. أسرع، أسرع. انظر. إيفان إيفانوفيتش قد أسرع في سيره وقد رفع أهداب غفارته.

في الحقيقة ركض الجوّال الصغير فعلاً وعبر بنا بسرعة فاجأتني.

- من هنا! من هنا!

من دون أن أدرك تمامًا ما يحدث وجدت نفسي تحت غطاء كثيف من أشجار الصفصاف على ضفة النهر. بجانبني كان إيفان إيفانوفيتش يلهث، وأفتونوموف غير موجود. بدت الطاحونة، على مقربة، في أشد حالات الاهتياج. عجت المياه وفارت في القنوات المفتوحة. ظلت إحدى العجلات تدور بثقل كما كانت، وبدأ أن الأخرى ربما مقفلة،

تصر وتتأوه بتأثير ضربات الماء. حاول كلب الإفلات من سلاسله، نابحًا بغضب.

لاح الضوء من إحدى نوافذ الطاحونة، وكأنها استيقظت وفتحت عينيها. صرَّ باب، وخرج الطحَّان العجوز مرتديًا قميصًا أبيض وسروالًا، يحمل فانوسًا، صوب الجسر. سار شخص آخر خلفه، وقد أخذ يحك رأسه ويشاء. قال:

- هل انفجر السد أم ماذا؟

- أين انفجر بالضبط؟ اسمع! المصاريع تطلق. عسى ألا تكون قد تحطمت! آخ!

- انظر هناك! إنها مفتوحة.

- ما هذا؟ من فتح السد؟

اقترب الرجلان من الأقفال. سرعان ما خمد الضجيج، فقد أقفلا المصاريع مجددًا وسكنت الطاحونة. تسلل ضوء الفانوس بصمت بامتداد السد، ثم تلاشى مجددًا. فجأة دوى صوت تريشوتكا. من الواضح أن أحدهم بقي للحراسة.

انتشر ضجيج الطاحونة غير العادي في الحقول، وأيقظ القرويين النائمين مجددًا، وبدا من المدهش وجود كل هؤلاء الناس في هذا الظلام. أجابوا من مختلف الأماكن، من الأمام والخلف، بل ومن مكان ما في الأسفل أيضًا، بقطعة الألواح الخشبية والتريشوتكا. من قرية بعيدة، أو ربما من باحة الكنيسة، رن الجرس ببطء مجددًا. على مقربة منا صدح طائر ليلي ما.

عندما هدأ كل شيء حولنا قال أندريه إيفانوفيتش:

- لنمضِ! كم من الناس قلقوا بسبب وغد واحد!

سألته:

- ماذا حدث؟

قال الإسكافي بغضب، مشيراً إلى إيفان إيفانوفيتش:

- اسأله!

أجابه الجوّال في حزن:

- هذا أذى بالطبع. لا يمكنني أن أمتدحه.

- ماذا حدث؟ أين أفتونوموف؟

- ها هو! يصدق مثل طائر ليعطينا علامة. يقول: من هنا! امضوا

أيها الرفاق الأعزاء! لكني لم أر كيف تمكن الوجد من فتح السد.

وأنتما أيضاً، تسيران خلفه كالنيام. لو كنا قد واصلنا النوم لأتى

الفلاحون أسرع ولكانت نزهة حقاً! سألحق بهذا الوجد، ولا

تتدخل. سأقلبه رأساً على عقب وسأدخل قدميه داخل حلقة!

وتقدم بحزم.



لم ينفذ أندريه إيفانوفيتش نياته الشريرة، وبمضي نصف ساعة عاودنا السير في الطريق صامتين. لم تشرق الشمس بعد، لكن ازداد تناثر الدرجات البيضاء اللبنة أكثر فأكثر في السماء وعبر الغيوم وأسفل أقدامنا، واضطربت غمامة بيضاء في الأفق البعيد، وقد اكتنفت السهل الشاسع. برز من هذا الضباب وجه جواد ثم لاحت عربة مُحَمَّلة بأشولة، وقد نام فلاح عليها، ومن خلفها عربة أخرى فارغة. قال أندريه إيفانوفيتش للفلاح:

- أيها العم! ألا تقلنا معك؟

فرك الفلاح عينيه الناعستين ونظر في دهشة إلى الصحبة التي أحاطت به وقال:

- من أين جاء بكم الله؟

- من الحج.

- حسنًا. اصعدوا! سأعطيكم توصيلة، ولكن ليس بعيدًا، فأنا من الجوار.

- هل أنت قادم من الطاحونة؟

- كانوا في الطاحونة، أما أنا، فكما ترى، خاو. اصعدوا!

جلسنا على جوانب العربة، وقد دَلَّينا أقدامنا. قال الرجل، ضاربًا جواده بالسوط:

- اسمحوا لي أن أسألكم: هل كنتم تسيرون طوال الليل أم ماذا؟
- نعم، طوال الليل.
- ألم تسمعوا شيئًا ليلاً؟
- نبحت الكلاب على شيء ما، ولكن بعيدًا. ما الأمر؟
- في الطاحونة سمعوا شيئًا، ووجدوا مصاريع السد مفتوحة، وكادت العجلات تنكسر تمامًا.
- ومن رفع المصاريع؟
- لا نعرف. أحدهم يعبث ليلاً. يقولون في الجوار إن أحدهم طلب مأوى. أحدهم ظهر وقال: دعوني أدخل، أنا عفريت.
- قال أفتونوموف، وكان قد تخلى عن زيتته منذ فترة:
- يحدث ذلك أحيانًا.
- قال أندريه إيفانوفيتش بانفعال وحسم:
- لا يحدث ذلك أبدًا، ولا أطلب منك أن تصدق ذلك. بعض الأوغاد يخدعونكم أيها القرويون. يستغلون بساطتكم.
- قال أفتونوموف بطريقة وعظية، وبأقصى درجات الهدوء:
- بعض الناس لا يؤمنون بالله ولا بالقديسين.
- كز أندريه إيفانوفيتش على أسنانه، وهدد بقبضته أفتونوموف، من دون أن يلاحظه الفلاح.

قراة الظهرية وصلنا على نفس العربة التي صادف أن التقينا بها بالقرب من المدينة إلى شقتي. توقفت العربة عند البوابات. أثارت الرفقة الحيوية انتباه بعض المارة؛ الأمر الذي أخرج أندريه إيفانوفيتش بوضوح. دعوت رفاقي لأخذ قسط من الراحة وشرب الشاي في شقتي. أجاب الإسكافي ببرودة، ملقياً بالحقيقة على ظهره:

- شكرًا لك! منزلي قريب.

ثم سأل بتلقائية مشيرًا بإصبعه إلى أفتونوموف:

- وهل تشمله دعوتك أيضًا؟

- نعم، أدعو جينادي سيرجيفيتش أيضًا.

استدار أندريه إيفانوفيتش بحدة، ومضى في الشارع من دون وداع. بدا إيفان إيفانوفيتش خائفًا بشكل يدعو لليأس، كما لو أن دعوتي حبسته حبسة طائر سقط في فخ. نظر إلى أفتونوموف بتوسل، ونبضت هيئته كلها بالخزي. سأل أفتونوموف ببساطة:

- وإلى أين يمكننا أن نمضي؟

في أثناء تجهيز السماور، طلبت من عائتي جمع بعض الثياب والملابس الداخلية الفائضة، واقترحت على رفيقي أن يبدلا ثيابهما. وافق أفتونوموف ببساطة، وطوى كل شيء في ربطة واحدة وقال:

- لهذا أحتاج إلى الحمام.

وافقت بالطبع. عاد كلا الجوّالين من الحمام في هيئة مختلفة. ظهر إيفان إيفانوفيتش في سترة واسعة للغاية وسروال شديد الطول، وبدا بخصلات شعره الناعمة امرأة متخفية بشكل مدهش. فيما يتعلق بأفتونوموف، فلم يرضَ بالكمية التي يحتاج إليها من الثياب فقط، بل ارتدى كل ما قدمته إليه. بهذه الطريقة انتهى به الأمر إلى ارتداء كوسفورونكا^(٢٩) زرقاء وقميص وصديريتين وسترة. ظهرت الكوسفورونكا فوق ياقة القميص وأسفلها بسبب طولها. برزت أهداب القميص، وفوقها السترة كطبقة ثالثة. جلسنا إلى طاولة الشاي. بدا إيفان إيفانوفيتش يعاني بشدة، حتى إننا سمحنا له - بدافع الشفقة - أن ينفرد بكوب شايه في المطبخ حيث جلس في إحدى الزوايا، وسرعان ما اكتسب شفقة طاهيتنا.

سلك أفتونوموف باندفاع، وخاطب أمي بـ«السيدة»، وهبَّ من مقعده في كل فرصة ليقدم خدمة ما.

بعد الشاي نظر إلى نفسه في المرأة، من رأسه إلى أخمصيه قدميه، شاعرًا بالرضا، وقال:

- مع زيّ كهذا لن يهملني صهري. سأمضي لزيارة شقيقتي. إنها تعيش على مقربة من هنا. اسمحي لي يا سيدتي أن أترك حقيقتي الصغيرة عندكم هنا في ردهة الاستقبال.

(٢٩) رداء ريفي روسي تقليدي.

عندما مضى عبر الردهة صوب البوابة، ركض إيفان إيفانوفيتش خلفه خائفاً. بعد حديث قصير سمح أفتونوموف للمسكين أن يتبعه من مسافة.

بعد فترة قصيرة عاد إيفان إيفانوفيتش وحده. شعَّ وجهه الذي يشبه وجه طير بالدهشة والسرور. قال، يكاد يختنق من فرط السعادة:

- استقبلوه يا سيد! لديه أخت حقيقية فعلاً، ولديه صهر حقاً، يمكنك أن تمر هناك، كما لو أنها مصادفة، لترى بنفسك. يا رب! يجلسون في الحديقة الأمامية ويولمونه، ويعاملونه معاملة القريب، بل إن شقيقته تبكي من الفرحة.

ثم صدرت أصوات غريبة من صدر الجوّال الصغير تشبه الضحكة الهستيرية والبكاء!

بمرور ساعة ظهر أفتونوموف في هيئة مبتهجة احتفالية. أمسك بيدي بحرارة وضغطها حتى ألمني.

- بفضلك استعدت أقاربي مجدداً، نعم، حتى الموت.

وضغط يدي بمزيد من القوة ثم ألقاها بطريقة متشنجة.

قال إن صهره صدّق تغيره، وهو رجل له تأثير على مجلس الكنيسة، ومن ثم قرّر أن يتولى أمره. تبقى فقط إنهاء بعض الأوراق في أوجليتش.

- ها قد عدت! انتهت رحلة حجي يا سيد. لن أتركك يا فانيا، ستنال مأوى وطعاماً... عِش! ستصير لي وظيفة وستتولى أنت ترتيب الشقة وأموراً أخرى.

استمعت إلى هذه الأحاديث، وتسلى الشك تلقائيًا إلى نفسي؛
خاصة أن أفتونوموف عاد مجددًا إلى الأسلوب الطنان والاستخدام
المتزايد لكلمة «سيد».

قيل المساء غادر كلاهما إلى أوجليتش من أجل الأوراق. قدّم
أفتونوموف وعدًا رسميًا بالعودة في غضون أسبوع من أجل «بدء حياة
جديدة». قلت في نفسي بقدر كبير من الشك: «هل ذلك هو المطلوب
فقط لتحديث معجزة؟».

* * *

تغير الطقس بدرجة حادة. بدا وكأن الربيع المبكر الفاتن قد تلاشى وحل محله فجأة خريف متأخر بارد. أمطرت طوال أيام وخبطت الريح بين الأمطار والسحب.

في أحد هذه الصباحات الباردة، استيقظت متأخرًا، وبينما أحاول التكهن بالوقت سمعت ضجيجًا بسيطًا وصريرًا غريبًا في الردهة الداخلية ناحية الباب. فتحت الباب ورأيت في الزاوية المظلمة شيئًا حيًا. يا إلهي! كان إيفان إيفانوفيتش، وجسده كله يرتجف، وقد تحول إلى اللون الأزرق، ونظر إليَّ بعينين متوسلتين خجولتين. بدا كحيوان مرعوب قريب من قضاء نحبه. سألته باختصار:

- نقطة ضعفك ثانية؟

أجاب بتذلل ووداعة، محاولاً أن يُعدّل ثيابه: «نقطة ضعفي ثانية». وجدته مرتديًا غفارة غريبة ورأسه مكشوف، وقد ارتدى حذاء من الليف^(٣٠) على قدميه العاريتين.

سرعان ما ظهر أفتونوموف. كان ثملًا ومندفعًا. تحدث ببعض العبارات الطنانة، وسلك كصديق قديم، وبين الحين والآخر يضيف

(٣٠) نوع ريفي رخيص مصنوع من لحاء البتولا أو شجر آخر، وغير ملائم لطبيعة الطقس الموصوف.

تلميحات لاذعة إلى ذكرياته عن تجوالنا معاً وعن زوجة الجندي.
لاحت معاناة شريرة في عينيه أدركت فيها مجدداً شخص الواعظ أمام
بوابات الدير والاستعداد لارتكاب وقاحات شريرة. لم يقل كلمة واحدة
عن زيارته لأخته. التفت إلى الخادمة قائلاً:

- اسمعي يا عزيزتي، في المرة السابقة تركت غفارتي عندك، وهي
لا تزال تلائمني. (أضاف، ناظرًا إليّ بوقاحة) كان مصير هديتك
بائساً. سرقونا بالقرب من أوجليتش، وانتزعوا منا كل شيء.
يبدو أن التاجر خدعك بأحذية لبادية وبضاعة فاسدة. فاسدة. لقد
بلي كل شيء.

وربت على كتفي كمن يتنازل ويتواضع.

نظر إيفان إيفانوفيتش إلى راعيه نظرة تنم عن الأسف والتوبيخ.
افترقنا ببرودة بعض الشيء، ووحده إيفان إيفانوفيتش هو من نظرنا إليه
جميعاً بتعاطف صادق وشفقة.

بعد ذلك، اعتدت بين الحين والآخر أن أتلقي أخباراً عن رفيقي
اللذين التقيت بهما مصادفة. تصلني هذه الأخبار في الغالب من أناس
يرتدون الغفارات والعباءات، تبدو عليهم أمارات الضعف، يمرون
ويحيونني أو يتركون لي بعض الرسائل الصغيرة، ويأخذون مني مبالغ
تافهة، ويُعربون عن خيبة أملهم. ذات مرة تعثر أحدهم، وهو مخمور
تماماً، ذو مظهر شرير للغاية، وقد قدّم لي رسالة بنوع من الألفة الغامضة،
كما لو أنها من صديق مشترك بيننا.

كُتِب الخطاب بخط مهزوز وغير منتظم:

«صديقي العزيز. استقبل من سلّمك هذه الرسالة كما لو أنك تستقبلني أنا شخصيًا. إنه من ذوينا ويمكنه أن يحكي لك كل شيء. وبالمناسبة، يمكنك أن تساعد بالمال والثياب. سراويله في حالة مزرية».

جينادي أفنونوف

نظرة واحدة بدت كافية لأقتنع بأن سروال مرسل الرسالة في حالة مزرية للغاية، لكن على الرغم من ثمّالته، ألقى نظرة سريعة وفضولية على شقتي.

في أثناء محاولة إبعاده تعالى بعض الضجيج المؤسف، واضطرت إلى تلقي العون من جيراني الطيبين.



بعد عامين التقيت مجدداً برفيقي السابقين .

في يوم صيفي حار استقللت المعديّة لعبور الفولجا، وسحبنا زوجاً من الخيول على رمال الضفة وحتى مدخل الجبل . كانت الشمس آخذة في الغروب، ومع ذلك ظلت الحرارة غير محتملة . تدفقت موجات الحرارة من كل مكان، بل وبدا أنها تتدفق حتى من النهر المتلألئ . حلقت سحب من ذباب الماشية فوق الجياد، ودقت الأجراس بانتظام وصرّت العجلات فوق الرمال العميقة . عاليًا، فوق التلة، أطل دير محاط بالخضرة على النهر من خلف ضباب حائم بدا وكأنه يطوف في أرجاء الهواء .

أوقف الحوذي فجأة عربة الترويكا بسبب إنهاك الجوادين في أثناء الصعود على طول الضفة . في الفرست الرابع، على الحافة المفروشة بالحصى والحجارة، اكتسى باللون الأسود منظر مجموعة غزيرة من الناس تسير تحت أشعة الشمس .

قال رفيقي : « لا بد أن شيئاً ما قد حدث » . خرجت من العربة ومضيت سيراً إلى هناك .

على الضفة الفارغة حيث تتحرك مياه النهر بتكاسل، رأيت جثماناً . اقتربت وعرفته؛ استلقى الجوّال الصغير بغفارته وصدره على الرمال،

وذراعه ممدودتان ورأسه مقلوب بشكل غير طبيعي. بدا شاحباً شُحوباً مريعاً، وامتدت خصلات شعره السوداء على جبهته وصدغيه وفوق فمه. تذكرت تلقائياً هذا الوجه الذي كان يشع ببهجة طفولية من تغريد العصفور فوق التل. ذكّرني الآن، بأنفه المدبب الطويل وفمه المغفور، وعلى نحو مذهش، بطائر مُعذّب ومسحوق. وجدت أفتونوموف جالساً عند رأسه يتمايل، وقد شَعَّ الخوف من عينيه. بانّت رائحة نبذ واضحة في الهواء.

بعد أن نظر إلى المقترين من حوله، ولم يتعرف عليّ وسطهم، بدأ يجذب فجأة الجثمان الساجي.

- انهض يا رفيقي. هيا إلى الطريق. مكتوب على الجوّال أن يتجول إلى الأبد.

تحدث مجدداً بلهجة طنانة، ونهض متقلقلًا:

- ألا تريد؟ هيا يا فانيا. أرجوك وإلا سأمضي وحدي.

وضع العمدة يده على كتفه، وقد اقترب بسرعة من الجمع، معلقاً ميدالية على صدره، وقال:

- انتظروا. لا ترحلوا. يجب إلقاء كلمة. ماذا حل بهؤلاء الناس؟

خلع أفتونوموف المورمولكا عن رأسه بإذعان ساخر قائلاً:

- أستمحك عذراً يا معالي عمدة القرية!

تعالى رنين الجرس من أعلى. دعوا في الدير إلى صلاة عشية. رن الجرس واحتاج الهواء الساخن، واجتاح القمم المتعرجة لأشجار

البلوط والحدور الأسود، وهبط على المنحدرات حتى تلاشى في النهر
النائم. تعالى الصوت مجددًا، واستلقى على صفحة المياه، وبدأ أن أذنًا
حساسة يمكنها متابعة رحلته إلى الضفة الأخرى صوب المروج الزرقاء
والضبابية.

خلع الجميع قبعاتهم. وحده أفتونوموف أدار رأسه صوب رنين
الجرس ورفع قبضته إلى الأعلى مهددًا. قال:

- أسمع يا فانيا؟ الأب رئيس الدير يناديك. سيُقدَّم الشاي الآن.

دقة إثر دقة، رنين سريع ومتكرر ومرتجف، يسقط على صفحة
النهر بمهابة وهدوء.



وسط صحبت سيئت

من ذكريات طفولة صديقي

أطلال

ماتت أمي وأنا في السادسة. بدا أن أبي الذي استسلم لحزنه كُليةً قد نسي وجودي تمامًا. في بعض الأحيان يداعب أختي الصغيرة ويبيدي اهتمامه بها بطريقته الخاصة لأنها تشبه أمي. نشأت كشجيرة برية في حقل؛ لم يرعني أحد ولكن في الآن ذاته لم يحد أحد من حريتي.

سُميت المدينة الصغيرة التي عشنا فيها «كنياجي فينو»، أو ببساطة «مدينة الأمير». كانت هذه المدينة لعائلة بولندية وضيعة المستوى لكنها أبيّة، وقد تمثلت في المدينة كل السمات التقليدية التي تتوفر في كل المدن المحلية الصغيرة في المنطقة الغربية الجنوبية، حيث عاش السادة البولنديون آخر أيام عظمتهم الحزينة، وسط حياة الكد وصخب الأعمال التجارية اليهودية الصغيرة.

لو أنك مررت بهذه المدينة الصغيرة من ناحية الشرق، فأول شيء سيلفت انتباهك هو السجن، وهو أفضل بناية معمارية في المدينة. أما المدينة نفسها، فممتدة بالأسفل فوق البرك المتعفنة الناعسة، ويتطلب الوصول إليها أن تهبط طريقًا سريعًا منحدرًا تحجبه بوابة تقليدية. ستجد جنديًا مصابًا، يُمثل جسده الذي سفته الشمس في حد ذاته تجسيدًا

للسبات الهادئ، يرفع لك الحاجز بتكاسل، ومن ثم تجد نفسك في المدينة، وقد لا تلاحظ ذلك سريعاً. تتناثر الأسوار الرمادية والأراضي البور حيث أكوام من مختلف أنواع القمامة إلى جانب أكوخ عوراء مغروسة في الأرض. علاوة على ذلك تجد ميداناً واسعاً تتشاب منه في وجهك الحانات اليهودية من مواضع شتى، كما تثير في نفسك الكآبة بنايات حكومية بائسة، بجدرانها البيضاء وخطوطها المنتظمة التي تبدو كثكنات الجنود. يمتد جسر خشبي فوق جدول صغير، يهتز تحت العجلات التي تعبر فوقه ويترنح كعجوز متداعٍ. يمتد الشارع اليهودي خلف الجسر، بمتاجره وحواليته وطاولات صرّافين يهود يجلسون تحت مظلاتهم على الأرصفة، وكذلك بائعات الأرغفة. نتانة وقذارة وأكوام من الأطفال يزحفون فوق تراب الشارع. لكن ما إن تمر دقيقة أخرى حتى تجد نفسك قد تجاوزت المدينة بالفعل. تهمس أشجار البتولا فوق أضرحة المقابر وتحرك الريح الجيوب فوق حقول الذرة وتتردد أغنية حزينة لا نهائية في أسلاك التلغراف على جانب الطريق.

يتدفق النهر الذي امتد فوقه الجسر الصغير من بركة ويصب في أخرى. هكذا تُحاط المدينة، من الشمال وحتى الجنوب، بمساحات واسعة من الأسطح المائية والمستنقعات. تزداد البرك ضخالة من عام لآخر وتنمو فوقها الخضرة وتموج القصبات السمكية كأمواج البحر في هذه المستنقعات الشاسعة. تظهر جزيرة وسط إحدى هذه البرك، وتلوح فوقها قلعة قديمة متداعية.

أذكر جيداً الخوف الذي كنت أشعر به بينما أنظر إلى هذه البناية المهيبة المتداعية. تناقل الناس عنها الحكايات، وكل منها أشد إثارة

للرعب من الأخرى. قالوا إنها بُنيت بطريقة سيئة بأيدي الأسرى الأتراك. اعتاد القدامى القول: «قلعة قديمة فوق عظام بشرية». وقد رسمت مخيلتي الطفولية المرتعبة آلاف الهياكل العظمية التركية تحت الأرض التي دَعَمَت الجزيرة بأشجار حورها الهرمية العالية وقلعتها المتداعية. يتضح من ذلك لماذا بدت القلعة أشد إثارة للهلع، وحتى في الأيام الصافية حينما شجعنا الضوء وتغريد الطيور على الاقتراب منها، أثارنا فينا غالباً نوبات هلع، وقد بدت التجاويف السوداء للنوافذ المحطمة منذ فترة طويلة مخيفة، وحفيف غامض يطوف القاعات الخاوية بينما تسقط قطع الحصى ويتحطم الجص، ويتردد صدى عميق، ونركض من دون أن ننظر خلفنا، وتظل تتردد خلفنا لمدة طويلة طرقات وقعقات وقوقات.

في الليالي الخريفية العاصفة، حينما تتمايل وتهتز أشجار الحور العملاقة بفعل الريح التي تهب من خلف البرك، تطفح القلعة القديمة بالرعب الذي يسود المدينة برمتها. «يا ويلي!»^(٣١)، هكذا يردد اليهود في خوف، وترشم البائعات الورعات العجائز علامة الصليب، وحتى أقرب جيراننا، الحدّاد، الذي ينكر وجود القوى الشيطانية، يخرج في هذه الأوقات إلى ساحة منزله الصغيرة ويرشم علامة الصليب، مردداً صلاة بصوت هامس من أجل أن تنعم أرواح الراحلين بالسلام.

حكى لنا يانوش ذو اللحية الشيباء أكثر من مرة، وقد اتخذ أحد أقبية القلعة مأوى له لعدم امتلاكه شقة، أنه في مثل هذه الليالي اعتاد أن يسمع بوضوح صيحات تتردد من تحت الأرض. بدأ الأتراك يعبثون تحت

(٣١) مكتوبة بحسب النطق العبري بحروف روسية.

الجزيرة ويدقون بعظامهم ويوبّخون السادة البولنديين على قساوتهم. في هذه الأوقات تقعع الأسلحة في ردهات القلعة القديمة، وفي الجزيرة من حولها، ويستدعي السادة البولنديون مقاتليهم بصيحات مدوية. يسمع يانوش بوضوح تام ضجيجًا وهدير العاصفة وصهيل الخيول ورنين السيوف وأوامر القادة، بل إنه سمع ذات مرة كيف خرج الجد الأكبر للسادة البولنديين الحاليين، الشهير بمآثره الدموية، وقد أخذ يدق الأرض بحوافر جواده في منتصف الجزيرة وهو يلعنهم بشراسة: «صمتًا أيها الأوغاد الكفرة!».

فارق أحفاد هذا الكونت مسكن أسلافهم منذ فترة بعيدة. عبرت معظم الدوكات^(٣٢) والكنوز التي عبّت بها صناديق السادة البولنديين الجسر، وذهبت إلى أكواخ اليهود وآخر ممثلي الجنس النبيل الذي شيّد أبناؤه بناية بيضاء مبتذلة على الجبل، بعيدًا عن المدينة. واصلوا هناك وجودهم الممل والمهيب في الآن ذاته، في عزلة عظيمة تنضح بالازدراء. بين الحين والآخر يظهر في المدينة الكونت القديم الذي يبدو حطامًا كثيبًا كالقلعة على الجزيرة، على جواده الإنجليزي العجوز، بجواره تجوب ابنته شوارع المدينة في ثياب الفارسات السوداء، مهيبة وجافة، على جوادها، وعلى مسافة معقولة منهما السائس. حُكِم على الكونتيسة العظيمة أن تظل عذراء إلى الأبد، فالسادة اللائقون بمكائنها قد فارقوا البلاد سعيًا وراء المال، خلف بنات التجار، وتشتتوا في مختلف الأماكن، تاركين قلاعهم العائلية، أو

(٣٢) عملة ذهبية أوروبية قديمة.

باعوا حطامها لليهود. في المدينة الصغيرة الواقعة أسفل قصرها لم يظهر شاب واحد يجرؤ على رفع عينيه إلى الكونتيسة الجميلة. عند رؤية الفرسان الثلاثة ننقلع، نحن الأطفال، من تراب الشارع، كسرب من الطيور، ومنتثر سرياً في الساحات، ونتابع بنظرات فضولية وخائفة أصحاب القلعة المريعة.

في الناحية الغربية، على الجبل، بين الصלבان المتحللة على القبور المتهاوية، كانت كنيسة روتينية^(٣٣) صغيرة مهجورة منذ زمن بعيد. يوماً ما كانت الابنة الشرعية لمدينة صغيرة انبسطت على الوادي. في وقت ما اعتاد أبناء المدينة الاجتماع فيها عند سماع صوت أجراسها بمعاطفهم الكونتوش^(٣٤) النظيفة، حتى لو لم تكن فاخرة، والعصي في أيديهم بدلاً من السيوف المعقوفة التي اعتاد النبلاء الصغار استخدامها، والحضور بها سريعاً من القرى والمزارع المحيطة بهم أيضاً.

من هذا المكان كان بالإمكان رؤية الجزيرة وأشجار الحور القاتمة والعملاقة فيها، ولكن القلعة احتجبت عن الظهور بغضب وازدراء أمام وجه الكنيسة الصغيرة بسبب الخضرة الكثيفة، وفي اللحظات التي تهب فيها الرياح الغربية الجنوبية من خلف القصب والخيزران، وتحوم

(٣٣) الكنيسة الروتينية (نسبة إلى روتينيا وهي لفظة أُطلقت على الشعب السلافي الشرقي) هي كنيسة كاثوليكية ظهرت في الإقليم البولندي، وأنشأها كهنة أرثوذكسيون حولوا ولاءهم من بطريك القسطنطينية الشرقي إلى البابا الروماني الغربي، لكن يبدو من سياق القصة أن أصلهم السلافي حال دون اندماجهم مع العرق البولندي الذي اعتبر نفسه أرستقراطية وسط الغالبية السلافية.

(٣٤) ثياب مجرحة قديمة تقليدية.

فوق المدينة وتمايل أشجار الحور بصوت عالٍ، وتومض النوافذ من خلفها... في هذه اللحظات وحسب تظهر القلعة وتبدو كأنها تلقي بنظراتها الكئيبة على الكنيسة الصغيرة. الآن، كلتاها صارت أطلالاً. خفتت عينا القلعة، ولم تعد تومض عليهما انعكاسات شمس الغروب، أما الكنيسة فقد انهار سقفها في بعض المواضع وتداعت الجدران، وبدلاً من رنين جرس نحاسي مرتفع، يتعالى نوه^(٣٥) اليوم المشؤوم.

لكن الصراع التاريخي القديم الذي فصل حيناً بين قلعة السادة الفخورة والكنيسة الروتينية الصغيرة^(٣٦)، استمر حتى بعد تداعيهما، وقد دَعَمته الكائنات الزاحفة إلى الزوايا المتبقية من الأقبية الموجودة تحت الأرض، ولكن هذه الديدان التي انتشرت في البنايتين المائتين كانت بشرًا.

مر وقت كانت فيه القلعة ملاذاً مجانياً لكل فقير، من دون أي قيود. كل من لم يجد له مكاناً في المدينة، وكل حطام البشرية ممن فقد - لسبب أو لآخر - إمكانية أن يدفع أي مبلغ تافه لقاء فراش وزاوية يتوارى فيها ليلاً في طقس سيئ، يندفع صوب الجزيرة، وهناك يجد لرأسه مسنداً وسط الحطام، ولا يدفع شيئاً سوى تكلفة تعرّضه لخطر أن يُدفن تحت أكوام الزبالاة القديمة. صارت عبارة: «يعيش في القلعة» تعبيراً عن أقصى درجات الفقر والتدهور. استقبلت القلعة القديمة وأوت، بكل أريحية، متسولاً، وكاتباً فقيراً بشكل مؤقت، وعجائز يتيّمات، ومشردين

(٣٥) صوت صراخ البومة عند رفع رأسها.

(٣٦) هناك أسباب تاريخية قديمة للصراع بين البولنديين والروس.

بلا أهل. تعذبت كل هذه الكائنات في هذا المبنى المتداعية أسقفه وأرضياته، وأوقدوا المواعد ليأكلوا ما يتيسر لهم، وبشكل ما مارسوا الوظائف الحيوية اللازمة لوجودهم.

إلا أنه حلت فترة دبت فيها الخلافات بين أفراد هذا المجتمع المتواري في كنف هذه الهياكل المتداعية الشيباء. حدث ذلك حينما بدا الأمر وكأن يانوش العجوز، الذي كان يومًا ما واحدًا من الموظفين التافهين لدى الكونت، قد اشترى شيئًا ما كعقد ملكية واستولى على مقاليد الأمور هناك. بدأ يانوش إعادة تنظيم المكان، وبعد عدة أيام تعالى الضجيج على الجزيرة، وسمعت صيحات تجعل المرء يظن أن الأسرى الأتراك قد هربوا من الزنازين الموجودة تحت الأرض من أجل الانتقام من الظالمين. يانوش هو من تولى فرز سكان تحت الأنقاض، وفصل الخراف عن الماعز. ساعدت الخراف التي بقيت في القلعة يانوش على طرد المعاز البائسة التي أظهرت مقاومة مستميتة لكنها عقيمة. عندما استُعيد النظام مجددًا في النهاية على الجزيرة، بمساعدة الحارس الصامته والمهمة جدًا في الآن ذاته، تبين أن هذا الانقلاب اتسم بطابع أرستقراطي تمامًا. لم يترك يانوش في القلعة سوى المسيحيين الطيبين؛ أي الكاثوليك، علاوة على ذلك كان معظمهم من الخدم الطيبين أو من أحفاد خدم الكونت. كانوا جميعًا مسنين يرتدون معاطف رثة وشارماركا^(٣٧)، بأنوف زرقاء ضخمة وعصي معقوفة، كما ترك يانوش عجائز صاخبات وقبيحات، وعلى الرغم من أقصى

(٣٧) ثياب بولندية تقليدية.

درجات فقرهن فإنهن احتفظن بقبعاتهن ومعاطفهن. شكّلوا جميعاً دائرة أرستقراطية متجانسة ومتماسكة تبدو كما لو أنها حصلت على احتكار حق التسول الرسمي. طوال أيام الأسبوع اعتاد هؤلاء الشيوخ والعجائز السير، والصلوات تتردد على شفاههم، إلى منازل سكان المدينة الأكثر ثراء وأبناء الطبقة البرجوازية الوسطى، ينشرون بينهم القيل والقال، شاكين من سوء المصير، ذارفين الدموع، متوسلين، وفي أيام الآحاد شكّلوا أكثر الشخصيات احتراماً وسط الجمهور الذي اصطف في صفوف طويلة بالقرب من الكنائس، واعتادوا قبول العطايا باسم «السيد يسوع»^(٣٨) و«السيدة العذراء».

شقت طريقي إلى هناك، بصحبة مجموعة من رفاقي، وقد جذبنا الضجيج والصيحات المتعالية في أثناء هذه الثورة، وبعد أن اختبأنا خلف جذوع أشجار الحور السمكية، شاهدنا كيف يقود يانوش، وهو على رأس جيش كامل من الشيوخ أصحاب الأنوف الحمراء والعجائز القبيحات الصاخبات، حملةً لطرد آخر سكان القلعة ممن حُكم عليهم بالطرد. كانت السحابة المعلقة فوق قمم أشجار الحور العالية تمطر بالفعل، بينما تشق بعض الهياكل القائمة لشخصيات بائسة، ملفوفة بخرق بالية تماماً، طريقها في الجزيرة في خوف وذعر وارتباك، كحيوانات الخلد التي يطاردها الصبية من جحورها، محاولةً التسلل مرة أخرى من إحدى فتحات القلعة، لكن يانوش والعجائز الصاخبات يطاردونها بالصيحات والشتائم في كل مكان، ويهددونهم بالقضبان

(٣٨) يستخدم الكاتب هنا المفردة البولندية التي تعني «السيد».

والعصي، ويتنحى الحارس جانباً في صمت، وفي يده هو الآخر هراوة ثقيلة، محافظاً على حياده المسلح، ولكن يبدو واضحاً أنه في صف الجماعة المنتصرة. أما هياكل الشخصيات القاتمة والبائسة فتختفي قسراً وتتوارى خلف الجسر، تاركة الجزيرة إلى الأبد، وابتلعها شفق المساء الداكن الهابط سريعاً على صفحة السماء، واحداً تلو الآخر.

منذ هذا المساء الذي لا يُنسى، فقد يانوش والقلعة القديمة التي مثلت سابقاً نوعاً من العظمة الغامضة، كلٌّ جاذبيتهما في عيني. أحببت في الماضي الذهاب إلى الجزيرة، والنظر بفضول - حتى لو من بعيد - إلى الجدران الرمادية والسقف القديم المغطى بالطحالب. عندما يحل الفجر وتزحف من القلعة أجساد مختلفة تتشاءب وتسعل وترشم علامة الصليب وتظهر في ضوء الشمس، اعتدت النظر إليها بنوع من الاحترام، نظرتي إلى كائنات يكتنفها الغموض الذي يكتنف القلعة كلها. نظرت إليها بهذه الطريقة لأن أصحابها ينامون ليلهم في القلعة ويسمعون كل ما يحدث عندما يطل القمر من النوافذ المكسورة على الردهات الواسعة أو حينما تندفع الريح الصاخبة إليها. أحببت الاستماع إلى يانوش عندما يجلس تحت شجرة الحور ويحكي بطريقة رجل بلغ السبعين عن الماضي المجيد لهذه البناية الميتة. حينها تنبض صور الماضي بالحيوية في مخيلتي الطفولية ويعتمل في نفسي حزن مهيب وتعاطف غامض مع ما عاشته هذه الجدران البليدة ذات يوم، وتمر الظلال الرومانسية لعصر قديم غريب في نفسي الفتية مرور سحب خفيفة في يوم عاصف فوق حقل أخضر صافٍ وساطع.

لكن منذ هذا المساء وأنا أرى القلعة وشاعرها في ضوء جديد. بعد أن التقيت به في اليوم التالي بالقرب من الجزيرة بدأ يأنوش يدعوني إلى زيارته، مؤكِّدًا بنظرة راضية أنه صار بوسع ابن «هذين الوالدين المحترمين» أن يزور القلعة لأنه سيجد فيها مجتمعًا لائقًا تمامًا. بل إنه اقتادني من يدي إلى القلعة، لكنني هناك انتزعت يدي من يده باكيًا وركضت بعيدًا. صارت القلعة منفرة لي. كانت نوافذ الطابق العلوي مغلقة بألواح خشبية، بينما شغلت النساء اللاتي يمسكن بقبعاتهن ومعافهن الطابق السفلي. زحفت العجائز من هناك في هذا المظهر المنفر وأسرفن في ملاطفتهن لي، وتبادلن الشتائم فيما بينهن بصوت عالٍ حتى إنني تعجبت فعلاً كيف يمكن لهذه القلعة الراحلة الصارمة التي اعتادت ترويض الأتراك في الليالي العاصفة أن تحتل هؤلاء العجائز وتبقيهن في كنفها. لكن الأمر المهم هنا هو أنني لم أستطع نسيان القسوة الباردة التي طرد بها سكان القلعة المنتصرون المهزومين البائسين، ويعتصر الحزن قلبي حينما أتذكر هذه الأجساد المظلمة التي فارقت القلعة من دون مأوى.

أيًا كان ما حدث فقد عرّفتني القلعة القديمة لأول مرة حقيقة أن خطوة واحدة تفصل العظيم عن المضحك. تمثّل ما هو عظيم في القلعة في أشجار اللباب والحامول والطحالب، بينما شعرت بالنفور مما هو مضحك وآذى ذاكرتي الطفولية، فلم أكن قد وصلت بعد إلى مرحلة ملائمة لإدراك سخريّة هذه المتناقضات.

شخصيات إشكالية

بعد مرور عدة ليالٍ على هذا الانقلاب الذي تم في الجزيرة عمَّ القلق المدينة؛ ظلت الكلاب تنبح وأبواب المنازل تصر، ويخرج السكان بين الحين والآخر إلى الشارع ويدقون الأسيجة بعصيتهم ليُعلموا شخصًا ما أنهم يحرسونه. عرفت المدينة أن أناسًا يتسكعون في شوارعها في الظلام البائس، شاعرين بالجوع والبرد، مرتجفين من البلل، وعرف أهل المدينة أن بين هؤلاء الناس لا بد وأن تتولد مشاعر قاسية، ومن ثم تيقظوا لمواجهة هذه المشاعر التي أرسلت تهديداتها. حل الليل على الأرض - كما لو عن عمد - في أثناء هطول مطر غزير، وفارق الليل الأرض تاركًا غيومًا منخفضة تتحرك سريعًا فوقها. اشتدت الرياح وسط الطقس السيئ، وقد أخذت تهز قمم الأشجار وتضرب مصاريع النوافذ وتغني لي على فراشي عن عشرات الأشخاص المحرومين من الدفء والمأوى.

لكن بعد أن انتصر الربيع أخيرًا على آخر هبَّات الرياح الشتوية، جفَّت الشمس الأرض، وتوارى المتسكعون في مكان ما. هداً نباح الكلاب الليلي وتوقف السكان عن قرع الأسيجة بعصيتهم وعادت

حياة المدينة التعسة والرتيبة إلى مسارها. أحرقت الشمس الملتهبة التي لاحت في السماء الشوارع الترايبية، وقد دفعت أطفال بني إسرائيل الأذكياء من المتاجرين في حوانيت المدينة إلى الاحتماء منها تحت المظلات، بينما تمدد السماسرة بتكاسل تحت دفء الشمس، وظلوا يراقبون العابرين بانتباه، وتعالى صوت جرّات الأقلام الحبر في أيدي الموظفين البيروقراطيين من النوافذ المفتوحة للمكاتب الحكومية. في أوقات الصباح، تطوف سيدات المدينة السوق، حاملات السلال، وقبالة المساء يسرن في الشارع، متأبّطات أذرعة أزواجهن، جازّات أهّداب فساتينهن من خلفهن في تراب الشارع. صار شيوخ القلعة وعجائزها يطوفون بابتهاج حول منازل المحسنين إليهم من دون خرق التناغم العام. كما اعترف السكان بتلقائية بحق هؤلاء الشيوخ والعجائز في الوجود، ووجدوا أنه من المشروع تمامًا أن يتلقى الواحد منهم صدقة في أيام السبت، كما يجب أن ينال سكان القلعة هذه الصدقة باحترام كبير. وحدهم المطرودون البائسون لم يجدوا حتى الآن طريقًا إلى المدينة. الحق أنهم لم يتسكعوا في الشوارع ليلاً وقيل إنهم وجدوا مأوى في مكان ما على الجبل بالقرب من الكنيسة الروتينية الصغيرة، ولكن أحداً لم يعلم بالضبط كيف استطاعوا الاستقرار هناك. لم ير الناس سوى أمر واحد؛ من ناحية الجبال والوديان المحيطة بالكنيسة صارت تهبط إلى المدينة أغرب الشخصيات وأشدّها إثارة للريبة ثم تتلاشى عند الغسق في الموضع ذاته. أثار ظهورهم الاضطراب في تيار حياة المدينة الهادئ والناعس، وبدوا كبقعة قاتمة على الخلفية الرمادية للمدينة. اعتاد السكون إلقاء نظرة قلقلة

وعداية عليهم، وهم بدورهم رمقوا الحياة الضيقة لسكان المدينة بنظرة مقلقة أصابت الكثيرين بالخوف منهم. لم تشبه هذه الشخصيات بتاتاً الهيئة الأرستقراطية لمتسولي القلعة، ولم تعترف المدينة بهم، وهم لم يشدوا هذا الاعتراف. اتسمت علاقاتهم بالمدينة بطابع عدائي تمامًا. فضّلوا أن يسبوا سكان المدينة عن تملقهم لنيل صدقة منهم. وهم إما عانوا معاناة مبرحة من صنوف المضايقات في حالة إن كانوا ضعفاء، وإما أجبروا سكان المدينة على المعاناة إذا امتلكوا القوة اللازمة لذلك. علاوة على ذلك، حدث كثيرًا أن وُجد أشخاص بين هذا الحشد الأشعث والقاتم من البؤساء كان باستطاعتهم، بما يملكونه من ذكاء وموهبة، أن يُشرّفوا الرفقة الموجودة في القلعة، لكنهم لم ينسجموا معها وفضّلوا المجتمع الديمقراطي للكنيسة الروتينية الصغيرة. تميزت بعض هذه الشخصيات بملامح تنم عن مأساة عميقة.

إلى الآن لا أزال أتذكر كيف كان الشارع يدمدم بمرح حينما تمر به شخصية «الأستاذ» العجوز المحني والكئيب. كان شخصية هادئة وحمقاء، يرتدي معطفًا صوفيًا قديمًا، وقبعة ضخمة ذات عقدة سوداء. يبدو أنه مُنح هذا اللقب الأكاديمي نتيجة تقليد قديم غامض، فربما عمل في مكان وزمان ما مُربّيًا. يصعب على المرء أن يتصور إنسانًا يفوقه مسالمة وإذعانًا. يتسكع عادة في الشوارع دون وجهة محددة، بنظرة بليدة ورأس محني. عرف السكان العاطلون سمتين فيه استفادوا منهما ليُسليا أنفسهما به بقسوة. يتمم «الأستاذ» طوال الوقت بشيء ما عن نفسه، ولكن أحدًا لم يستطع فهم كلمة واحدة من هذه التمتمة. تتدفق

هذه التتمتات كدممة تيار موحل، وفي هذا الوقت تنظر هاتان العينان البلیدتان إلى المستمع كما لو أنهما تحاولان أن تغرسا في نفسه المغزی المتملّص من هذا الحديث الطویل. يمكن أن ينطلق كآلة، ويتوجب حينها على كل السماسرة الذين ملوا النعاس في الشارع أن ينادوا على العجوز ويطرحوا عليه أي سؤال. يهز «الأستاذ» رأسه ويحدق متمعناً إلى المستمع بعينه الباهتتين، ويغمغم بشيء ما حزين لا ينتهي. في الوقت نفسه يمكن للمستمع أن يغادر بهدوء أو يغفو، وحينما يستيقظ يجد هيكلاً قاتماً حزيناً لشخص ما يقف عند رأسه لا يزال يدمدم بكلام غير مفهوم. لكن هذا الأمر في حد ذاته لم يكن مثيراً بدرجة خاصة. سمة أخرى في «الأستاذ» هي التي شكّلت التأثير الرئيس على متسكعي الشوارع في مدينتنا؛ لم يكن بإمكان البائس أن يتحمل ذِكْراً لأدوات القطع والثقب الحادة أمامه من أي شخص. لذلك يحدث عادة في أوج تمتته غير المفهومة، أن ينهض المستمع فجأة إليه من على الأرض ويصيح بصوت حاد: «سكاكين! مقصات! إبر! دبائيس!»، وحينها يستيقظ العجوز المسكين من أحلامه ويطوّح ذراعيه كطائر مصاب ينظر حوله بذعر، واضعاً يديه على صدره. آه! يا لصنوف المعاناة التي يظل السماسرة غير قادرين على فهمها لمجرد أن صاحبها لا يمكنه أن يُعبّر لهم عنها بضربة صحيحة بقبضته! أما «الأستاذ» المسكين فلا يفعل شيئاً سوى النظر حوله بمعاناة عميقة ويلوح في صوته عذاب غير محتمل حينما ينظر إلى مُعذِّبه بعينه البلیدتين ويقول مرتعشاً، وأظفاره تخدش صدره: «قلبي... خُطاف في قلبي! في قلبي ذاته!».

ربما أراد أن يقول بهذه الصرخات أن قلبه يتعذب، ولكن من الواضح أن هذا الموقف تحديداً هو ما يجلب المتعة لسكان المدينة المتبطلين الشاعرين بالملل. يبتعد «الأستاذ» البائس سريعاً ويشد انحناء رأسه كما لو أنه يخشى تلقي ضربة، ومن خلفه يتردد ضجيج الضحك وينتشر في الهواء كضربات السوط، كل ضربة منها تقول: «سكاكين! مقصات! إبر! دبائس!».

من الضروري أن نُنصف المطرودين من القلعة. لقد ساندوا بعضهم بصلاصة، ولو كان السيد توركيفيتش مع صعايكه الاثنين أو الثلاثة، أو ضابط المدفعية زائوسايلوف، قد هجم على الحشد الذي يلاحق «الأستاذ»، لنال كثيرون من هذا الحشد عقاباً قاسياً. أعلن ضابط المدفعية زائوسايلوف، ذو القامة الهائلة والأنف الأرجواني المزرق والعينين المتفتحتين، حرباً مفتوحة على جميع الأحياء منذ زمن بعيد، ولم يعترف بهدنة أو بحياد. في كل مرة يجد فيها المتسكعين يلاحقون «الأستاذ» لا تنتهي صيحاته بسبهم. يندفع حينها في الشوارع كتيمورلنك، مدمراً كل ما يجده في طريق موكبه الهائل، ويتضح أنه بهذه الطريقة ارتكب المذابح ضد اليهود قبل فترة طويلة من ظهورها على نطاق واسع، وعذب الذين أسرهم منهم بكل الطرق الممكنة، كما ارتكب فظاعات في حق السيدات اليهوديات، ولم تكن رحلات ضابط المدفعية الجسور تنتهي إلا في قسم الشرطة، بعد معارك ضارية مع رجال الشرطة يُظهر فيها كلا الجانبين قدراً كبيراً من البطولة.

من الشخصيات الأخرى التي كانت مادة لتسلية سكان المدينة
ببؤسها وسقوطها الموظف المتقاعد والمخمور تمامًا لافروفسكي.
لا يزال سكان المدينة يتذكرون الزمن القريب عندما كان لا يُنادى إلا
بـ«السيد الكاتب» حينما كان يرتدي زيًا رسميًا بأزرار نحاسية ويربط
أوشحة ملونة مبهجة صغيرة حول عنقه. أضفى ذلك مزيدًا من الإثارة
على مشهد سقوطه الحقيقي. حدث الانقلاب في مسار حياة السيد
لافروفسكي سريعًا. لم يتطلب الأمر أكثر من أن يأتي إلى مدينة كياجى
فينو ضابط سلاح الفرسان اللامع الذي مكث في المدينة لأسبوعين
وحسب، ولكنه في غضون هذه الفترة تمكن من تحقيق الانتصار
واصطحب الابنة الشقراء لصاحب الحانة الثري معه. منذ ذلك الحين
لم يسمع أحد من سكان المدينة شيئًا عن الجميلة أنا لأنها اختفت إلى
الأبد عن أنظارهم. أما لافروفسكي فبقي مع كل أوشحته الملونة،
ولكن بلا أمل يمكن أن يضيفي بعض النعومة على حياة موظف تافه.
لقد فارق الوظيفة منذ فترة طويلة. بقيت أسرته في مكان ما في مدينة
صغيرة، وقد كان ذات يوم أملها والداعم لها، لكنه الآن لم يعد يبالي
بشيء. في لحظات نادرة من حياته يجوب الشوارع، ولا ينظر إلى أحد،
كما لو أن خزي حياته يكتنفه تمامًا. يسير مهلهل الثياب ومتسخًا بشعر
أسود طويل وقذر، ويبرز فورًا وسط الحشود ويجذب انتباه الجميع،
ولكن يبدو كما لو أنه لا يلاحظ أحدًا ولا يسمع شيئًا. لكن بين الحين
والآخر يلقي نظرات مشوشة على ما حوله تعكس حيرته: ماذا يريد منه
هؤلاء الغرباء؟ ماذا فعل لهم ولماذا يلاحقونه بعناد؟ أحيانًا، في مثل

هذه اللحظات من الوعي، حينما يصل إلى أسماعه اسم السيدة ذات الشعر الأشقر، يشتعل سخط عارم في قلبه وتتقد عيناه بلهب داكن على وجهه الشاحب، ويندفع بكل قوته صوب الحشد الذي يتشتت سريعاً. على الرغم من أن هذه التفجرات لم تحدث إلا نادراً، فقد أثارت فضول المتبطلين الشاعرين بالملل، فلا عجب إذن أنه عندما يجوب الشوارع تتبعه مجموعة من العاطلين، وعبثاً يحاولون إخراجهم عن طوره، ويبدأون في إلقاء الطين وقطع الحجارة الصغيرة عليه.

عندما يشمل لافروفسكي، يختار بعناية الزوايا المظلمة تحت الأسوار، حيث البرك التي لا تجف أبداً، وأماكن أخرى استثنائية مماثلة حيث يعتقد أن أحداً لن يراه فيها. يجلس هناك، ويمد ساقيه الطويلتين ويحني رأسه الظافر الصغير على صدره. تثير الوحدة والفودكا فيه نوبة صراحة ورغبة في صب الحزن الشديد الذي يكتنف نفسه، ويبدأ في قص حكاية لا نهائية عن شبابه الذي تبدد. في هذا الوقت يلتفت إلى الأعمدة الرمادية للسياح القديم وإلى شجرة البتولا، هامساً بلطف بشيء ما إلى الغربان التي تقفز بسرعة وتنظر بفضول أنثوي إلى هذا الجسد المظلم المتسكع. إذا تمكن أي منا - نحن الصبية الصغار - من تعقبه إلى هذا الموضع، نحيط به بهدوء ونستمع بكل تشوق إلى حكاياته الطويلة والمرعبة. نُصاب بالقشعريرة وننظر بخوف إلى الوجه الشاحب لإنسان يتهم نفسه بكل الجرائم الممكنة وغير الممكنة. إذا صدقنا ما يقوله لافروفسكي فهو إذن قتل أباه ودفع والدته إلى قبرها وأMAT إخوته وأخواته جوعاً. لم تكن لدينا أسباب تدفعنا إلى عدم

تصديق هذه الاعترافات المريعة، ولكن الأمر الوحيد الذي أدهشنا هو أن لافروفسكي - على ما يبدو - لديه الكثير من الآباء، حيث إنه طعن واحدًا منهم بالسيف في قلبه، وعذَّب آخر بقتله ببطء بالسم، وأغرق ثالثًا في المياه. نستمع بهلع وتعاطف حتى يزداد تلعثم لافروفسكي ويصير حديثه غير مفهوم وتضع نعمة النوم حدًا لفيضانات التوبة هذه. يسخر البالغون منا قائلين إن كل هذه كذبات وإن والدَي لافروفسكي ماتا ميتة طبيعية؛ أي ماتا من الجوع والمرض. لكننا كنا نستمع إليه بقلوب فتية حساسة ونستشعر في آهاته شدة ألمه الداخلي الصادق، ونصدق كلامه على علاقته، وعلى الرغم من كل ذلك كنا أقرب إلى فهم طبيعة حياته المجنونة والمأساوية.

عندما يزداد انحناء رأس لافروفسكي ويتعالى الشخير من حلقة وتقطع تنهدات عصبية، نحني رؤوسنا الطفولية أسفًا على هذا البائس. كنا ننظر إلى وجهه بعناية ونراقب آثار الأفعال الإجرامية عليه في أثناء النوم، وكيف يتحرك حاجباه بعصبية وتتقلص شفناه ليصنع تكشيرة باكية طفولية تقريبًا.

يصيح فجأة «سأقتلك» شاعرًا في أثناء نومه بقلق غير محدد من وجودنا، وحينها نندفع بعيدًا كالقطيع.

يحدث أن تغمره الأمطار في هذا الوضع النائم ويغطيه الغبار، كما حدث عدة مرات في الخريف أن غطته الثلوج تمامًا، وإذا لم يكن قد مات ميتة مبكرة فلا شك أن مرد ذلك إلى عناية أمثاله البائسين بشخصه الحزين، وبصورة أساسية إلى عناية السيد توركيفيتش المرح به، والذي

يسعى إليه وهو نفسه يترنح، ويظل يرجُّه ويحاول إفاقة حتى يجعله ينتصب على قدميه ويصطحبه معه.

ينتمي السيد توركيفيتش إلى مجموعة من الناس لا تسمح - على حد تعبيره - لأحد بالتعدي على حقوقها^(٣٩)، وفي الوقت الذي يعاني فيه «الأستاذ» ولا فروفسكي، يبدو توركيفيتش مرحاً وفي خير حال من مناحٍ كثيرة. بادئ ذي بدء رقى نفسه إلى رتبة جنرال - من دون إذن من أي شخص - وطالب سكان المدينة بتقديم الاحترام اللائق بهذه الرتبة، ونظرًا لأن أحدًا لم يجرؤ على منازعة حقه في نيل هذا اللقب، فسرعان ما أحبه السيد توركيفيتش وصدّق عظمتَه تمامًا.

- بَمَ يعرفني الناس؟

- الجنرال توركيفيتش.

هكذا يجيبه ابن المدينة، شاعرًا بأنه في موقف صعب. يطلق توركيفيتش سراحه فورًا، ويمسد شاربه بشكل مهيب قائلاً: «هذا كل شيء!».

نظرًا لأنه تميز بطريقة شديدة الخصوصية في تمسيد شاربه الذي يبدو كشارب صرصور، وحاز قدرة لا تنضب على إلقاء النكات والكلمات الساخرة، فلم يكن من المستغرب إذن أن يحيط به دائمًا حشد من المستمعين المتبطلين، بل وفتحوا له أبواب أفضل المطاعم حيث اجتمع فيها أصحاب الأراضي للعب البلياردو. لتحريّ الصدق

(٣٩) تعبير روسي يعني حرفيًا: لا يسمح لأحد بالبصق في عصبهته.

علينا أن نذكر أن حوادث نادرة قد طرأت، طار فيها السيد توركيفيتش من مكان ما بسرعة إنسان دفعوه من الخلف بطريقة لا يمكننا أن نصفها باللائقة، لكن يمكن تفسير مثل هذه الحوادث بنقص قدر الاحترام الذي يكنه أصحاب الأراضي لأصحاب الذكاء، ولم يكن لمثل هذه الحوادث النادرة تأثير على المزاج العام لتوركيفيتش، بل تمثلت حالته الطبيعية في الثقة بالنفس والشمل الدائم.

مثل الأمر الآخر المصدر الثاني لهناؤه؛ كانت تكفيه كأس واحدة ليستعيد قواه طوال اليوم. اتضح أن السبب يعود إلى الكمية الهائلة من الفودكا التي شربها بالفعل سابقاً وحوّلت دماءه إلى ما يشبه معجون فودكا بحيث صار يكفي الآن أن يحافظ على معجون الفودكا هذا عند قدر معين من التركيز ليتلاعب به ويشيره، ويُلَوِّن له العالم من حوله بألوان قوس قزح. لذلك، إذا حدث لسبب ما أن الجنرال لم يشرب كأساً واحدة لمدة ثلاثة أيام، فحينها يعاني من عذابات لا تُحتمل. في البداية يسقط فريسة لنوبات كآبة وجبن، وعرف الجميع أن الجنرال الهائل في مثل هذه اللحظات يصير طفلاً لا حول له ولا قوة، ويتنهب كثيرون هذه الفرصة للانتقام منه لإساءاته السابقة في حقهم. يضربونه ويصقون عليه ويلطخونه بالوحل، بينما لا يحاول الأخير فعل شيء، ولو حتى تفاديهم. كل ما يفعله هو أن يصيح بأعلى صوته وتنهمر الدموع من عينيه على شاربه بشكل يُرثى له. يتوجه المسكين إلى الجميع، ناشداً أن يقتلوه، والأمر الذي يُحفّز فيه هذه الرغبة هو أنه لا يبالي بالموت «ميتة الكلاب تحت أحد الأسبيجة». حينها يتعد الجميع عنه. إلى هذه الدرجة يلوح

شيء ما في هيئة الجنرال وصوته يجبر أشد ملاحقيه جرأة على الابتعاد عنه في أسرع وقت ممكن حتى لا يروا هذا الوجه ولا يسمعوا صوت إنسان وصل في فترة قصيرة إلى الوعي بوضعه المريع. حينها يطرأ على الجنرال تغيير آخر؛ يصير مرتعباً وتتقد عيناه كالمحموم وتترهل وجنتاه وتنتصب خصلات شعره القصيرة. ينهض سريعاً على قدميه ويضرب صدره بقبضته ويجوب الشوارع بمهابة معلناً بصوت مرتفع: «أنا قادم! قادم أنا كالنبي آرميا^(٤٠) لإدانة الأشرار!». يثير هذا المشهد أكبر قدر من الاهتمام. يمكن القول بكل يقين إن السيد توركيفيتش في هذه اللحظات ينفذ بنجاح كبير وظيفة لا نعرفها في مدينتنا؛ ألا وهي وظيفة الإعلان، لذلك لا يثير العجب أن يترك المواطنون الأشد صلابة ومشغولية شؤونهم اليومية وينضمون إلى الحشد الذي يرافق الظهور الحديث للنبي آرميا، أو على الأقل يتابعون مسيرته من بعيد. عادة يتوجه أولاً إلى منزل سكرتير محكمة المقاطعة، ويعرض أمام نوافذه ما يشبه جلسة محاكمة، حيث يختار من بين الحشد المار الممثلين الملائمين ليؤدوا دور المدعى والمدعى عليه، ويتحدث بنفسه نيابة عنهم ويجب باسمهم، محاكياً بمهارة صوت المتهم ونبرته. نظراً لأنه استطاع دائماً في أثناء أدائه الإشارة إلى أحداث حقيقية حدثت قريباً، وعلاوة على خبرته الكبيرة في مجال الإجراءات القضائية، لا يثير الدهشة إذن أن تهرع الطاهية في غضون مهلة قصيرة من منزل سكرتير المحكمة، وتدس شيئاً ما في يده، وتختفي سريعاً عن أعين بطانته. بعد أن ينال هذه العطية، يقهقه بخبث ويلوح بالنقود باحتفالية متوجهاً إلى أقرب حانة.

(٤٠) أحد أنبياء اليهود ويوجد سفر باسمه في كتبهم المقدسة.

بعد أن يروي عطشه هناك، يقود مستمعيه إلى منازل المحاكمين، ويُعدّل الحوارات التي يتلوها في كل مرة بحسب الظروف. نظرًا لأنه ينال في كل مرة رسومًا على أدائه هذا، فمن الطبيعي إذن أن تلين نبرته الهائلة وتكتسب عينا النبي الهائج قدرًا من المداهنة ويتجه شاربه إلى الأعلى ويتحول العرض المسرحي من دراما قضائية إلى فودفيل^(٤١) مرح، وينتهي الأمر عادة أمام منزل قائد الشرطة كوتس. كان كوتس أطيّب مسؤولي المدينة وقد تميز بنقطة ضعف صغيرتين؛ الأولى: صبغ شعره الأشيب بالأسود. ثانيًا: ميله إلى الطاهيات السمينات، معتمدًا في كل شيء آخر على إرادة الله وامتنان المواطنين الطوعي. باقتراب توركيفيتش من منزل قائد الشرطة المواجه للشارع مباشرة، يغمز بمرح لرفاقه، ويطوّح قبعته إلى أعلى ويعلن بصوت عالٍ أن من يعيش هناك ليس قائد الشرطة، بل والده والمحسن إليه.

بعد ذلك يوجّه أنظاره إلى النافذة وينتظر النتائج. عادة تكون هذه النتائج من نوعين: إما تهرع ماتريونا السمينة ذات الوجه المتورد من الباب الأمامي وتعطيه صدقة من أبيه المحسن، أو يظل الباب مغلقًا ويومض وجهه عجوز غاضب من خلف النافذة، مُؤطّر بشعر فاحم السواد، وتتسلل ماتريونا بهدوء من الباب الخلفي متجهة إلى قسم الشرطة لتحضر ميكيتا الذي يتمتع بخبرات كبيرة في التعامل مع توركيفيتش. يُنحي ميكيتا قالب الحذاء الذي انهمك في إصلاحه عنه وينهض من مقعده ببرود.

(٤١) مشاهد مسرحية هزلية.

في هذه الأثناء لا يرى توركيفيتش جدوى من المديح، ويبدأ تدريجياً وبحذر في الانتقال إلى السخرية. يبدأ عادة بالإعراب عن أسفه على أن المحسن إليه يجد ضرورة لصبغ شعره بمُلَمَّع الأحذية. ثم يرفع صوته، مستاءً تماماً من استخدام بلاغته، ويبدأ في تحطيم المحسن إليه بالإشارة إلى تقديمه مثلاً سيئاً للمواطنين بعلاقته غير الشرعية بماتريونا. حينما يصل إلى هذا الموضوع الحساس يفقد الجنرال كل أمل له في التصالح مع المحسن إليه، ومن ثم يزيد من حدة بلاغته الحقيقية. للأسف، يحدث عادة في هذا الموضوع بالضبط من الحديث أن يطرأ تدخل خارجي مفاجئ على المشهد، ويختلس وجه كوتس الأصفر والغضب النظر من خلف النافذة، ويجبر ميكيتا - الذي جاء خفية من الخلف - توركيفيتش بمهارة ملحوظة. لا يحاول أحد من المستمعين أن يحذّر الخطيب من الخطر الذي يقترب منه، وذلك لأن تقنيات ميكيتا الفنية تشير دائماً الإعجاب العام. يطير توركيفيتش - الذي قُوطِع في أثناء حديثه - في الهواء فجأةً بشكل غريب، ويجد نفسه محمولاً فوق ظهر ميكيتا، وفي خلال ثوانٍ يتوجه الشرطي القوي إلى السجن، منحنيًا قليلاً تحت ثقل حملة، وسط صرخات تصم الأذان من الحشد المجتمع. لا تمر دقيقة أخرى إلا وينفتح الباب الأسود للقسم، كفكٌ مفترس أسود، ويُدلي الجنرال ساقيه بلا حول ولا قوة، ثم يتوارى خلف باب السجن. يصيح الحشد الجاحد «أورا!»^(٤٢) ويتفرق ببطء.

علاوة على الأفراد البارزين وسط هذا الحشد، تتجمع كتلة قاتمة

(٤٢) صيحة روسية شهيرة للتعبير عن النصر والحماسة.

أخرى من الصعاليك البائسين، ويشير حضورهم في السوق دائماً قلقاً شديداً وسط التجار الذين يسرعون إلى تغطية بضاعتهم بأيديهم الطيبة كما يغطي الدجاج أفراخه عندما تظهر حدأة في السماء. تتردد شائعات عن أن هذه الشخصيات البائسة، المحرومة تماماً من كل موارد العيش منذ أن طُردت من القلعة، قد شكّلت مجتمعاً متضامناً، ويشاركون معاً في تنفيذ سرقات بسيطة في المدينة وضواحيها. استندت هذه الشائعات بشكل أساسي إلى فرضية لا تقبل الجدل مفادها أن الإنسان لا يستطيع العيش من دون طعام، ونظراً لأن هذه الهياكل القائمة قد ابتعدت - بشكل أو بآخر - عن كل الوسائل المعروفة للحصول على الطعام، بعد أن طردها المحظوظون من القلعة وأبعدوها عن خيارات الإحسان المحلي، فالنتيجة الحتمية إذن هي عدم وجود خيار آخر أمامها سوى السرقة أو الموت. لم تمت هذه الشخصيات، وهذا يعني إذن أن حقيقة وجودها قد تحوّلت إلى دليل على سلوكها الإجرامي.

إذا كان ذلك صحيحاً، فلا يمكن أن يتبادر أي شك إذن حيال حقيقة أن منظم وقائد هذا المجتمع لا يمكن أن يكون شخصاً آخر خلاف السيد تيورتسي دراب، وهو الشخصية الأكثر بروزاً وسط كل هذه الشخصيات الإشكالية التي لم تعد تحيا في القلعة.

فيما يتعلق بمنشأ دراب، فتعثره أقصى درجات الغموض. نسب إليه من يتمتعون بمخيلة قوية اسماً أرسقراطياً لكنه جلب له الخزي أيضاً؛ الأمر الذي أجبره على التواري، فيبدو أنه قد شارك - بشكل ما

- في مآثر كارمليوكا^(٤٣). لكن أولاً: لم يكن كبيراً إلى درجة أن يسمح عمره بهذه الفرضية. ثانياً: لم يتسم مظهر السيد تيبورتسي بأي سمة أرستقراطية على الإطلاق. كان طويل القامة ومنحدر الكتفين كما لو أنهما ناءتا تحت عبء المصائب التي حملتها. اتسم وجهه بتقاطيع كبيرة وخشنة. شعره قصير، يميل إلى الحمرة، وجبينه منخفض، كما يبرز فكه إلى الأمام، ويتسم بحركات عضلية قوية، وهو الأمر الذي أشارت كل علوم الفراسة إلى أنه مُستمد بشكل ما من القرد. لكن العينين الوامضتين تحت الحاجبين المتدليين بدتا عنيدتين وكئيبتين، وقد لمع فيهما مزيج من الخبث وحِدَّة البصيرة والطاقة وذكاء العقل. بينما تبدي ملامح وجهه المتجهمة أشكالاً متنوعة فإن عينيه تحتفظان دائماً بتعبير واحد، وهو الأمر الذي جعلني أنظر دائماً بتلقائية إلى هذا الإنسان الغريب بخوف. بدا كأنه يخفي تحت هذا الوجه حزناً عميقاً لا هوادة فيه.

اتسمت يدا السيد تيبورتسي بالخشونة والقساوة، كما اتسمت قدماه بالكبر، وهو يخطو بهما خطوات ثقيلة كخطوات الفلاحين. في ضوء ذلك لم يعترف غالبية سكان المدينة بمنشئه الأرستقراطي، ووافقوا على قبول فرضية أنه عمل في أحد منازل السادة البولنديين البارزين. لكن حينها برزت مشكلة أخرى تتمثل في الكيفية التي يمكن بها تفسير درجة معرفته الاستثنائية التي بدت واضحة للجميع. لم تكن هناك حانة واحدة

(٤٣) زعيم أوكراني خارج عن القانون، قاتل ضد الهيمنة الروسية وصار بطلاً في عموم أوكرانيا، ويُشار إليه أحياناً بروبين هود الأوكراني.

في المدينة كلها إلا وألقى فيها السيد تيورتسي خطبًا كاملة لشيثرون وفصولًا كاملة من زينوفون من فوق برميل على الفلاحين الأوكرانيين الذين جاءوا في أيام السوق. كان الأوكرانيون حينها يفتحون أفواههم ويدفعون بعضهم بعضًا بالمرافق، بينما يسلمخ تيورتسي بقوة، من علاه على البرميل، كاترينا^(٤٤) أو يصف مآثر قيصر أو خيانة ميشريدتس^(٤٥). استطاع الفلاحون الأوكرانيون الذين وهبهم الطبيعة بشكل عام مخيلة قوية أن يضيفوا معنى معينًا وسط هذه الخطب الحيوية بطريقتهم الخاصة، على الرغم من أن كلماته في حد ذاتها لم تكن مفهومة. حينما كان يضرب على صدره وتلمع عيناه ويتوجه إليهم بالحديث قائلاً: «Patros conscripti»^(٤٦) تعبس وجوههم ويقولون بعضهم لبعض: «آه من هذا الوغد! أتسمعون ماذا يطلق علينا؟!».

بعد ذلك يرفع السيد تيورتسي عينيه إلى السقف ويبدأ في تلاوة أطول المقاطع اللاتينية، ويتابعه المستمعون ذوو الشوارب بوجل وشفقة. يبدو لهم حينها أن نفْس الخطيب تحوم في مكان ما في بلدة غير مرئية حيث لا يتحدث أبناؤها بلغات الشعوب المسيحية، ويستنتجون من إيماءاته اليائسة أن نفسه تختبر هناك مغامرات محزنة. لكن هذا الاهتمام المتعاطف يصل إلى أقصى درجات توتره حينما يحرك السيد تيورتسي عينيه لأعلى ولا يلوح سوى بياضهما، فيزعج المستمعين بترديد مطول لفيرجيل أو هوميروس. في هذا الوقت يبدو صوته خافتًا

(٤٤) إمبراطورة شهيرة لروسيا.

(٤٥) ابن الملك ميشريدتس السادس من بوتنوس وزوجته لاودس. أُعِدِمَ اشتباهاً في خيانتة.

(٤٦) الآباء مجلس الشيوخ (باللاتينية).

وكأنه قادم من خلف القبر، حتى إن الجالسين في الزوايا وأشدّهم استسلامًا لتأثير الفودكا اليهودية الصنع يُخَفَضون رؤوسهم حتى تسقط خصلات شعورهم الطويلة أمام أعينهم وينشجون قائلين: «آه إنه يحزن القلب! شيطان يأخذه!».

لذلك لا يوجد ما يثير الدهشة في أنه عندما يقفز الخطيب فجأة من على البرميل وينفجر في ضحك مرح تصفو وجوه الفلاحين الأوكران المكفهرة فورًا، ويمدون أيديهم إلى جيوب سراويلهم الواسعة ليُخْرِجوا عملات نحاسية. يتتهج السيد تيبورتسي بالنهاية الناجحة لرحلاته المأساوية، ويصب له الفلاحون الأوكران الفودكا ويعانقونه ويلقون بعملاتهم النحاسية في قبعته.

في ضوء هذه الدرجة المذهلة من المعرفة توجب تقديم فرضية جديدة عن أصل هذا الأعجوبة، بحيث تكون أقوى في اتساقها مع الحقائق المقدمة. قبلوا فرضية أن السيد تيبورتسي كان يومًا ما صبيًا في فناء منزل أحد السادة، وقد أرسله سيده إلى مدرسة الآباء اليسوعيين بصحبة ابنه، وقد فعل ذلك في الواقع ليتولى تيبورتسي تنظيف أحذية ابن سيده. مع ذلك تبين أنه في الوقت الذي تلقى فيه السيد الصغير ضربات تأديبية من السوط ثلاثي الأطراف للآباء اليسوعيين، استولى خادمه على كل الحكمة التي كان من المفترض أن تمضي إلى رأس سيده.

نظرًا للغموض الذي يحيط بتيبورتسي، نسبوا إليه - علاوة على حقول معرفية أخرى - حيازة معلومات مهمة عن فن السحر. إذا حدثت فجأة تقلبات سحرية في الحقول المتاخمة للأكواخ الأخيرة بالقرب من

البحر الهائج، فلن يمكن لأحد أن يفك تعاويذ هذا السحر، بأكبر قدر من الأمان، لنفسه وللحاصدين، مثل السيد تيبورتسي. عندما تطير بومة شريرة في المساء فوق أي سطح وتناجي الموت بنتيجها^(٤٧) العالي، يستدعون تيبورتسي ثانية ويحقق نجاحًا كبيرًا في طرد هذه البومة المشؤومة بتعاليم تيتوس ليفيوس^(٤٨).

لا أحد يمكنه أن يوضح أيضًا من أين جاء السيد تيبورتسي بأطفال، ولكن الحقيقة جلية، حتى لو لم يكن لها أي تفسير، بل إنهما حقيقتان: صبي في السابعة، لكنه طويل القامة بشكل يسبق عمره، وفتاة صغيرة في الثالثة. أحضر السيد تيبورتسي الصبي، أو بالأحرى جلبه معه منذ الأيام الأولى التي ظهر فيها في أفق مدينتنا. أما فيما يتعلق بالفتاة، فمن الواضح أنه مضى بعيدًا لعدة أشهر كي يحضرها من بلاد مجهولة تمامًا. اسم الصبي: فاليك، وهو طويل ونحيف وأسود الشعر، يتسكع عابسًا في المدينة في بعض الأحيان من دون عمل معين، داسًا يديه في جيبيه، ملقيًا نظرات جانبية تُربك بائعات الخبز. أما الفتاة فقد شوهدت مرة أو اثنتين، ممسكة بيد السيد تيبورتسي، ثم تلاشت في مكان ما، ولم يعرف أحد إلى أين ذهبت.

دارت أحاديث عن وجود أماكن ما تحت الأرض عند الجبل بالقرب من الكنيسة الروتينية عند النواحي التي اعتاد التتر المرور بها بنيرانهم وسيوفهم، وحيث اندلع التمرد البولندي وانتقم المتمردون

(٤٧) الشئج: صوت صياح البوم.

(٤٨) أحد أشهر المؤرخين الرومان.

الأوكران انتقامهم الدموي، وهناك كثرت السرايب الموجودة تحت الأرض. صدّق الجميع هذه الشائعات؛ خاصة وأن كل هذا الحشد من المشردين لا بد أنهم عاشوا في مكان ما. مع اقتراب المساء اعتادوا أن يتواروا عن أعيننا نواحي الكنيسة. يمضي «الأستاذ» إلى هناك بمشيئته الناعسة، ويخطو السيد تيورتسي صوب هناك بسرعة وحزم، كما يرافق لافروفسكي الشرس والعاجز في الآن ذاته توركيفيتش المتأرجح في سيرته، وتمضي إلى هناك قرابة المساء هياكل قائمة لشخصيات أخرى تغوص في الشفق، ولم يظهر رجل شجاع كفاية ليجرؤ على ملاحقتهم فوق المنحدرات الطينية. اتسم الجبل المليء بالقبور بسمعة سيئة. في المقبرة القديمة، في الليالي الخريفية الرطبة، يتوهج اللهب الأزرق، ويتعالى نئيج البوم عند الكنيسة بصوت رنان لدرجةٍ ينقبض معها قلب حدّاد شجاع خوفاً من نئيج الطائر المشؤوم.



أنا وأبي

- أمر سيئ أيها الشاب. أمر سيئ.

هكذا اعتاد يانوش العجوز من القلعة أن يقول لي عندما يلتقي بي في شوارع المدينة بصحبة السيد توركيفيتش أو وسط المستمعين إلى السيد دراب. يقول ذلك ويهز لحيته الشيباء: «أمر سيئ أيها الشاب. أنت وسط صحبة سيئة. أمر مؤسف. مؤسف للغاية ألا يحافظ ابن أبوين محترمين على شرف عائلته».

في الحقيقة، منذ أن ماتت أمي، صار وجه أبي الصارم أشد جهامة، ولم أعد أمكث في المنزل إلا نادراً. في أمسيات الصيف المتأخرة اعتدت التسلل إلى المنزل من الحديقة كذئب صغير، متحاشياً لقاء أبي، وأدخل من النافذة المواردية الموجودة وسط خضرة كثيفة من زهور الليلك، وأستلقي بهدوء على الفراش. إذا وجدت أختي الصغيرة لا تزال مستيقظة على مقعدها الهزاز في الغرفة المجاورة، أقترّب منها، ويلطف كل منا الآخر في هدوء، محاولين ألا نوقظ المربية العجوز النكدة.

في الصباح الباكر، حينما لا يلوح سوى قدر يسير من الضوء والجميع لا يزالون نائمين، أشق طريقاً وسط عشب الحديقة السميك

والعالي، وأتسلق السياج وأمضي صوب البركة حيث ينتظرنني هناك رفاقي الجامحون، وفي أيديهم صناراتهم، أو أمضي صوب الطاحونة حيث أجد عامل الطاحونة قد فتح المصاريح لتوّه، واندفع الماء الشفاف وانصب في الجداول، وأقبل عامل الطاحونة على عمله اليومي بحيوية. اهتزت أيضًا عجلات الطاحونة الضخمة التي أيقظتها هزات الماء الصاخبة، وبدأت كما لو أنها تتحرك بغير رغبتها كمن يتكاسل عندما يوقظونه، ولكن بمرور بضع ثوانٍ بدأت بالفعل في الدوران ونشرت الرغبة واغتسلت بدفقات باردة.

من خلف العجلات تحركت الأعمدة السمكية ببطء وثبات، وبدأت التروس تدق داخل الطاحونة، وصلصلت أحجار الرحي وارتفع غبار الطحين الأبيض في سحب عبر شقوق في بناية الطاحونة القديمة. حينها أواصل السير. أحببت أن ألتقي بالطبيعة في أثناء صحوها، وكنت أسعد إذا استطعت إخافة قبرة أو طرد أرنب جبان من خندقه. تتساقط قطرات الندى من أعلى العشب الندي بينما أشق طريقي عبر الحقول صوب البستان الموجود في ضاحية المدينة. تستقبلني الأشجار بهمسات النعاس الكسول. لا تظهر بعد من نوافذ السجن الوجوه الشاحبة الكالحة للمسجونين، ووحدهم الحراس يقفون بالأسلحة ويدورون حول الحائط ليحلوا محل حراس الليل المنهكين.

استطعت القيام بجولة مطولة، ومع ذلك كنت ألتقي في المدينة - بين الحين والآخر - بأجساد ناعسة، تفتح مصاريح نوافذ المنازل. لكن ها قد أشرقت الشمس فوق الجبل، وصار بالإمكان سماع رنين جرس

صاحب من خلف البرك ينادي طلبة الجيمنازيا^(٤٩)، بينما يدعوني الجوع لتناول شاي الصباح.

بشكل عام اعتاد الجميع وصفني بصبي متشرد لا قيمة له، وكنت أتلقى اللوم كثيرًا بسبب ميولي السيئة المختلفة إلى درجة أنني تشبعت تمامًا في النهاية بهذه القناعة. صدّق والدي ذلك هو أيضًا، وحاول أحيانًا أن ينهكم في تربيتي، لكن محاولاته انتهت دائمًا بالفشل. في كل مرة أرى فيها وجهه الصارم والكئيب الذي يحمل طابع حزن يتعذر الشفاء منه، أشعر بالخجل وأنطوي على نفسي. كنت أقف أمامه متقلقلًا، وأنشغل بالعبث بسروالي، متلفتًا من حولي. في بعض الأحيان يبدو لي وكأن شيئًا قد ارتفع إلى صدري، وتراودني رغبة في الارتواء في حضنه، وأن أجلس على ركبتيه ويلاطفني. ربما حينها سأستكين في صدره ونبكي معًا؛ طفلًا ورجلاً صارمًا، خسارتنا المشتركة. لكنه حينها ينظر إليّ بعينين غائمتين كما لو أنه ينظر إلى شيء فوق رأسي، وتجعلني هذه النظرة غير المفهومة أنكمش على نفسي تمامًا.

– هل تتذكر ماما؟

أتسألني هل تذكرتها؟ نعم، تذكرتها بالطبع! تذكرت جيدًا كيف كنت أستيقظ ليلاً وأبحث في الظلام عن يديها الرقيقتين وأضغظهما بقوة وأغمرهما بالقبلات. تذكرت عندما جلست متألّمة أمام النافذة المفتوحة، ناظرة بحزن إلى مشهد الربيع الفاتن، تودّعه وهي في العام الأخير من حياتها.

(٤٩) نوع من المدارس في روسيا يهتم بدراسة اللغات القديمة والتاريخ.

آه! تذكرتها! تذكرتها وهي مغطاة بالكامل بالزهور، شابة ورائعة، وقد استلقت وخاتم الموت على وجهها الشاحب، بينما اختبأت كحيوان صغير في الزاوية، وأخذت أنظر إليها بعينين متقدتين، وقد انكشف أمامهما لأول مرة لغز الحياة والموت المريع. تذكرتها بعد ذلك، عندما حملوها بعيداً وسط حشد من الغرباء. ألم يبدُ بكائي حينها تأوهاً مكتوماً في شفق الليلة الأولى ليُتمى؟

آه، تذكرتها! يحدث الآن كثيراً، في منتصف الليل المعتم، أن أستيقظ، مليئاً بالحب الذي اعتمل في صدري، وقد فاض به قلبي الطفولي، وترسم على وجهي ابتسامة سعادة في حالة جهل هانئ منبعثة من أحلام الطفولة. يبدو لي مجدداً، كما حدث من قبل، أنها معي وأنا ساجد الآن مداعبتها اللطيفة والمحبة لي. لكنني أمد يدي في الظلمة الخاوية، ويتخلل وعي الوحدة المريرة نفسي. حينها أضغط بيدي قلبي الذي يدق متألماً وتنهمر دموعي الحارة على وجنتي.

نعم، تذكرتها! لكن عندما سألني هذا السؤال رجل طويل القامة، متجههم، تقّت إلى الشعور بالطيبة ذاتها ولم أستطع، فانكمشت على نفسي وسحبت يدي الصغيرة من يده بهدوء.

ابتعد عني في حزن وألم. شعر أنه لا يمكنه أن يؤثر عليّ أدنى تأثير وأن حائطاً لا يمكن تجاوزه يفصل بيننا. لقد أحبها كثيراً في أثناء حياتها إلى درجة أنه لم يستطع أن يلاحظني من فرط سعادته، أما الآن فقد حجبني حزنه الثقيل عنه.

رويداً رويداً صارت الهاوية التي تفصل بيننا أوسع وأعمق. اشتدت قناعته بأنني صبي سيئ ومدلل ذو قلب قاسٍ وأنا، وقد ازدادت

كراهيته لي بسبب وعيه بأنه يتوجب عليه أن ينشغل بي ويحبني، ولكنه لا يستطيع أن يجد أي زاوية صغيرة في قلبه من أجل هذا الحب. شعرت بذلك. أحياناً أختبئ بين الأجمات وأراقبه، وأشاهد كيف يسير في الأزقة، وتزداد سرعة سيره، ويتأوه بصوت مكتوم من فرط الألم الذي لا يُطاق المعتمل في نفسه. حينها يمتلئ قلبي بالشفقة والتعاطف. ذات مرة، بينما كان يضغط بيديه رأسه، جلس على مقعد وانتحب. حينها لم أحتمل وركضت من بين الأجمات إليه، مدعناً لباعث غامض يدفعني صوب هذا الإنسان. لكن عندما أفاق من استغراقه الكئيب واليأس هذا نظر إليّ بصرامة وطرح عليّ سؤالاً بارداً:

– ماذا تريد؟

لم أُرِد شيئاً. ابتعدت عنه سريعاً شاعراً بالخجل من اندفاعي، خائفاً من أن يقرأ خجلي على وجهي المرتبك. بعد أن هربت إلى البستان سقطت على وجهي على العشب وانخرطت في بكاء مرير من الحزن والألم.

منذ أن بلغت السادسة وأنا أعيش هلع الوحدة. بلغت أختي سونيا أربعة أعوام فقط. أحببتها بشدة وقد كافأتني بحب مماثل. لكن النظرة الراسخة لي بوصفي لصاً صغيراً شيدت بيننا أيضاً حاجزاً عالياً. في كل مرة أبدأ فيها اللعب معها بطريقتي الصاخبة والمرحة، تستيقظ المربية العجوز الغافية دائماً فوق الريش الذي تنتفه طوال الوقت، وتمسك بسونيا العزيزة وتحملها بعيداً عني، ملقية عليّ نظرات غاضبة. في هذه الأوقات تبدو لي دائماً كدجاجة أم شعناء،

وأبدو كحدأة مفترسة، وسونيا كفرخ صغير. صرت في حالة من المرارة والحزن الشديدين. لا عجب إذن أنني سرعان ما أوقفت كل محاولات ترفيهي عن سونيا بالعابي الإجرامية، وبعد فترة أخرى صرت أشعر بالضيق في المنزل والحديقة الصغيرة حيث لم أعد أقابل تحية أو أجد لطفًا من أحد. بدأت في هذا الوقت تسكعي. ارتجف كياني كله بعدها بهاجس غريب عن آمال مرتقبة في الحياة. بدا لي طوال الوقت أنني سأجد في مكان ما في هذا العالم الفسيح وغير المعروف لي، خلف سياج الحديقة القديم، شيئًا ما، وبدا لي أن عليّ فعل شيء ما لكنني لم أعرف ما هو بالضبط، وفي هذه الأثناء نما شيء ما في أعماق قلبي حيال هذا المجهول والغامض، يضايقني ويشيرني. ظللت أنتظر التوصل إلى إجابة عن هذه الأسئلة، ووجدتني قد اعتدت الهروب تلقائيًا من المربية بريشها، ومن الحفيف البطيء المألوف لأشجار التفاح في حديقتنا الصغيرة، ومن القعقة الغبية للسكاكين المنهمكة في قطع كرات اللحم في المطبخ. منذ هذا الحين فصاعدًا أُضيف إلى نعوتي الأخرى: ولد شارع، متسكع، لكنني لم أبْد أدنى اهتمام بذلك. اعتدت تلقي التوبيخ وتحمله، كما اعتدت تحمّل هطول الأمطار المفاجئ أو حرارة الشمس القارصة. كنت أستمع إلى الملاحظات وأسلك كما يحلو لي. أتسكع في الشوارع وأرقب بعينين فضوليتين وطفوليتين الحياة البسيطة للمدينة، بأكوأخها الصغيرة، وأستمع إلى طنين أسلاك البرق على الطريق، محاولًا التقاط الأخبار المتدفقة عليها من المدن البعيدة

والكبيرة، أو أستمع إلى هزيز الريح على قبور المقاتلين الأوكران العالية. حدث أكثر من مرة أن فتحت عيني على آخرهما، ونظرت إلى لوحة الحياة المرترمة أمامي بهلع مؤلم. صورة خلف صورة، وانطباع إثر انطباع، ترك أثرًا في نفسي كبقع مضيئة. عرفت ورأيت كثيرًا مما لم يره أطفال كثيرون أكبر مني بأعوام، وفي هذه الأثناء بدا ظل هذا الشيء غير المرئي الذي ظهر في أعماق نفس طفولية يواصل هديره المستمر والغامض والمثير.

عندما نزع الشيوخ الرهبة والجاذبية اللتين كانتا للقلعة في عيني، وعندما صارت كل زوايا المدينة معروفة لي، بكل أزقتها القذرة، بدأت أولي نظري إلى الكنيسة الروتينية ناحية الجبل. اقتربت منها في البداية من نواحٍ مختلفة، كحيوان خائف، من دون أن أجروء على صعود الجبل سيئ السمعة. عندما تعرفت على المكان هناك لم أجد سوى بعض المقابر الهادئة والصلبان المكسورة. لم تظهر أي علامات هناك على وجود أي سكن أو أي حضور بشري. بدا كل شيء متواضعًا وهادئًا ومهجورًا وخاويًا. بدت الكنيسة نفسها تنظر عابسة من نوافذها الفارغة كما لو أنها مستغرقة في أفكار حزينة ما. أردت أن أنفحصها وألقي نظرة داخلها لأصل إلى قناعة نهائية بأن لا شيء فيها سوى الغبار. لكن نظرًا لأن القيام برحلة من هذا النوع وحدي سيكون مخيفًا وغير ملائم، استطعت تجنيد فصيلة صغيرة من شوارع المدينة، مكونة من ثلاثة جامحين انجذبوا إلى الأمر بعد أن وعدتهم بتقديم بعض الكعك لهم وبعض التفاح من حديقتنا.

تكوين رقعة جديدة

انطلقنا في رحلتنا بعد الغداء، وحين اقتربنا من الجبل بدأنا نصعد فوق الكتل الطينية التي حفرتها مجارف البشر وجداول الربيع. كشفت هذه الكتل الطينية عن منحدرات الجبل، وبرزت في بعض المواضع عظام بيضاء متحللة. في أحد هذه المواضع برزت زاوية تابوت خشبي، وفي موضع آخر رأينا جمجمة بشرية كشفت عن أسنانها، تحديق إلينا بعينيها السوداوين المجوفتين.

أخيراً، وبفضل التعاون المشترك بيننا، استطعنا تسلق الجبل بسرعة من جرفه الأخير. بدأ أفول الشمس. لمعت أشعتها المائلة على العشب الأخضر للمقبرة القديمة وتلاعبت على الصلبان المتهالكة والنوافذ المتبقية في الكنيسة. كان المكان هادئاً من حولنا وقد عم هدوء وسلام عميق المقبرة المهجورة. هنا لم نعد نرى جماجم أو عظاماً أو توابيت. مال العشب الأخضر المنعش والمستوي صوب المدينة قليلاً وأخفى في كنفه بلطف هلع الموت وقبحه.

كنا وحدنا، كنا وحدنا ولا شيء سوى العصافير تصخب حولنا وتطير دخولاً وخروجاً من نوافذ الكنيسة القديمة التي بدت محنية الرأس، حزينة بين القبور التي غطاها العشب والصلبان المتواضعة

والمقابر الحجرية المتهدمة التي انتشرت فيها مساحات خضراء كثيفة،
مبرقشة برؤوس عشب الحوذان والحبوب والبنفسج متعددة الألوان.
قال أحد رفاقي:

- لا يوجد أحد هنا.

علّق آخر، ناظرًا إلى الشمس التي لم تغرب بعد، وظلت فوق
الجبل:

- الشمس تغرب.

كان باب الكنيسة مغلقًا بإحكام والنوافذ مرتفعة عن الأرض، لكنني
أملت - بمساعدة رفاقي - أن أتسلق فوق ظهورهم وألقي نظرة على ما
يوجد داخل الكنيسة. صاح أحد رفاقي فجأة، وقد فقد كل رباطة جأشه،
وأمسكني من ذراعي:

- لا ضرورة لفعل ذلك.

صاح فيه أكبر فرد في جيشنا الصغير، مُقدّمًا ظهره عن طيب خاطر:
- شيطان يأخذك يا جبان!

اعتليت ظهره بجرأة، ثم استقام ووضعت قدمي فوق كتفيه. في هذا
الوضع حركت الإطار بيدي بسهولة، وتفحصت ثباته، ثم صعدت إلى
النافذة وجلست عليها. سألوني من أسفل باهتمام كبير:

- ها، ماذا هناك؟

صمتُ. بينما أتكئ على عضادة النافذة ألقى نظرة داخل الكنيسة
المهجورة، وشممت من مكاني رائحة صمتها المهيّب. خلا الجزء

الداخلي من البناية الضيقة الطويلة من أي زخارف. لوّنت أشعة شمس الغروب المنسابة بحرية من النوافذ المفتوحة الجدران القديمة الذهبية المقشرة. رأيت الجانب الداخلي: أروقة متداعية وأعمدة قديمة متهالكة بدت كأنها تنوء تحت ثقل غير مُحتمل. تدلت خيوط العنكبوت من الزوايا وقد تجمعت فيها الظلمة الشديدة التي تكمن في زوايا جميع البنايات القديمة. بدت المسافة من النافذة حتى الأرض أبعد كثيرًا منها إلى العشب في الخارج. نظرت وبدا الأمر وكأنني أنظر بالضبط إلى حفرة عميقة. في البداية لم أستطع رؤية أي أجسام غريبة ذات خطوط واضحة تلوح في الأفق.

في هذه الأثناء ملّ رفاقي من الوقوف بالأسفل، وقد انتظروا مني أخبارًا، ولذلك وجدت أحدهم قد وصل إلى جانبي بعد أن أدى الإجراء ذاته الذي أدّيته، وأمسك بإطار النافذة. قال محدّدًا إلى شيء غريب على الأرض:

- إنه المذبح!

- وهذه ثريا الكنيسة.

- وهذه المنجلية^(٥٠).

ثم أشار بفضول إلى شيء قاتم موجود بجوار المذبح متسائلًا:

- ماذا هناك؟

(٥٠) طاولة يوضع عليها الإنجيل الذي يقرأ منه الشماس والكاهن مقاطع من الكتاب المقدس في أثناء صلاة القداس.

- هذه قبعة كاهن.
- لا، هذا دلو.
- ولماذا يوجد دلو هنا؟
- ربما احتوى في وقت ما على الفحم الذي يُستخدم في المبخرة.
- لا، إنها حقاً قبعة. يمكننا أن نتأكد بأنفسنا. تعال! سنربط حزاماً بإطار النافذة ويمكنك أن تهبط باستخدامه.
- لا، لن أهبط. اهبط بنفسك لو شئت.
- أعتقد أنني لن أجد؟
- حسناً، اهبط!

ربطت الحزام بإحكام خلف إطار النافذة، منساقاً لاندفاعي، وأعطيت طرفاً لصديقي، وعلقت الآخر بي. حينما لامست قدمي الأرض ارتجفت، لكن نظرة سريعة إلى وجه صديقي المتعاطف أعادت لي قوتي. دوّت دقة كعبي تحت السقف وتردد صداها في الكنيسة الخاوية وزواياها المظلمة. طارت بعض العصافير من أعشاشها في خورس الشماسية^(٥١) واتجهت صوب حفرة كبيرة في السقف. فجأة ألقي وجه صارم وملتح، مكلل بتاج من شوك، نظرة عبر الحائط إلينا ونحن على النافذة. كان الوجه مائلاً من السقف الذي يصور لوحة عملاقة للصلب. ارتعبت وتألقت عينا صديقي بفضول وارتباك يخطفان الأنفاس. سألني هامساً:

- هل ستذهب إلى هناك؟

(٥١) المكان الذي يقف فيه الشماسية المرتلون في أثناء صلاة القداس.

- سأذهب.

أجبت هامساً أنا أيضاً، مستجمعاً شجاعتي. لكن في هذه اللحظة حدث شيء مفاجئ تمامًا.

في البداية سمعنا طرقاً وضجيجاً من الجص المتساقط على خورس الشمامسة. شيء ما حام بالأعلى وأثار سحابة من الغبار في الهواء، ورפרفت كتلة رمادية كبيرة بجناحيها، ومضت صوب الحفرة الموجودة في السقف. بدا الأمر كما لو أن الكنيسة أظلمت للحظة. انزعجت بومة عجوز ضخمة من ضجيجنا، فطارت من زاوية مظلمة وانطلقت على صفحة السماء الزرقاء حتى ابتعدت.

اجتاحني تيار من الخوف بث رعشة في جسدي. صحت في رفيقي،
ممسكاً بحزامي:

- ارفعني.

هذأني وهو يتأهب لرفعي صوب ضوء شمس النهار: «لا تخف! لا تخف!». لكن وجهه تلوى فجأة من الخوف. صرخ واختفى فوراً بعد أن قفز مبتعداً عن النافذة. نظرت حولي غريباً ورأيت ظاهرة غريبة أدهشتني أكثر مما أخافتني.

اتضح في النهاية أن الجسم القاتم الذي تجادلنا عما إذا كان قبعة أم دلواً، لمع في الهواء وتلاشى خلف المذبح. كل ما استطعت التقاطه هو الخطوط العريضة ليد صغيرة تبدو كما لو أنها يد طفل.

من الصعب وصف مشاعري في هذه اللحظة. لم أتألم، كما يستحيل أن أسمى الشعور الذي راودني حينها بالخوف. بدا الأمر كما

لو أني في عالم آخر، وفي غضون لحظات قصيرة تناهت إليّ أصوات خطوات أقدام أطفال مسرعة. لكنها سرعان ما هدأت. صرت بمفردي تمامًا، وكأنني في نعش، في مواجهة ظواهر غريبة لا يمكن تفسيرها. لم أشعر بالوقت حينها، ولذلك لا أستطيع معرفة كم مر من الوقت قبل أن أسمع أصواتًا هامسة من تحت المذبح:

- لماذا لا يعود من حيث أتى؟

- ألا ترى كم هو خائف؟

بدا لي الصوت الأول طفوليًا تمامًا، والثاني ربما يكون لصبي في سني. بدا لي أيضًا أنني رأيت زوجًا من الأعين السوداء تومض عبر شق في المذبح القديم. تناهى إليّ الهمس مجددًا:

- ماذا سوف يفعل الآن؟

أجاب صوت الأكبر سنًا:

- انتظر^(٥٢) لحظة!

تحرك شيء بقوة أسفل المذبح، بل وبدأ كأنه يلف، وفي اللحظة نفسها ظهر أحدهم.

كان صبيًا في نحو التاسعة من عمره، أكبر حجمًا مني، نحيفًا وهزيلًا كقصبة صغيرة. ارتدى قميصًا قذرًا، وضع يديه في جيبي سرواله القصير والضيق. تغضنت خصلات شعره المجمعة فوق عينيه السوداوين.

(٥٢) في النص الروسي لا يتضح هنا جنس المخاطب إليه: ذكر أم أنثى.

على الرغم من أن هذا الغريب الذي ظهر فجأة اقترب مني بطريقة غريبة، بشكل مستهتر ومُحرّض مثلما يفعل الصبية دائماً في السوق حينما يستعدون للعراك، فإنني تحليت بشجاعة كبيرة، بل إنني تشجعت بدرجة أكبر عندما ظهر أيضاً من تحت المذبح، أو بالأحرى من كوة أخفاها في أرضية الكنيسة، وجه آخر متسخ محاط بشعر أشقر، تومض عيناه الزرقاوان الطفوليتان بالفضول صوبي. ابتعدت قليلاً عن الحائط، ودسست يدي في جيبِي أنا أيضاً، وفقاً لقواعد الفروسية المعتادة في سوقنا. كانت هذه دلالة على أنني لا أخاف العدو، بل وعلامة على ازدرائي له بعض الشيء.

وقفنا قبالة بعضنا، وتبادلنا النظرات. رمقني الصبي من رأسي حتى قدمي وسأل:

- لماذا أنت هنا؟

- هكذا من دون سبب. ما شأنك بذلك؟

هز خصمي كتفه، وكأنه ينوي إخراج يديه من جيبه ليضربني.

لم يطرف لي جفن. هددني قائلاً:

- سأريك!

دفعت صدري للأمام قائلاً:

- حسناً، اضرب! حاول!

كانت لحظة حاسمة، وقد اعتمدت عليها طبيعة العلاقات القادمة.

انتظرت لكن خصمي ظل يختبرني بنظراته ولم يتحرك. قلت، ولكن

بلهجة أهدأ:

- يمكنني أن أريك أنا أيضًا يا أخي.

في هذه الأثناء كانت الفتاة التي علقت بيديها الصغيرتين بأرضية الكنيسة تحاول الخروج من الكوة. سقطت ثم تعلقت بها مجددًا، وأخيرًا توجهت بخطى ثابتة صوب الصبي. اقتربت منه وأمسكت به بإحكام ونظرت إليّ بدهشة وخوف بعض الشيء. حسم ذلك الأمر، وصار واضحًا تمامًا أن الصبي لا يمكنه العراك في هذا الوضع، أما أنا فاستفدت بالطبع بكل سرور من هذا الموقف المخرج. سألني الصبي، واضعًا يده على رأس الفتاة الأشقر:

- ما اسمك؟

- فاسيا. وأنت؟

- فاليك. أنا أعرفك. أنت تعيش في الحديقة التي فوق البركة. لديكم تفاح كبير.

- هذا صحيح. لدينا تفاح جيد فعلاً. ألا تريد بعضه؟

أخرجت من جيبي تفاحتين قررت الاستغناء عنهما، انتقامًا من جيشي الهارب هروبًا مخزيًا؛ وقدمت واحدة منهما لفاليك والأخرى للفتاة. لكنها أخفت وجهها في جسد فاليك. قال:

- إنها خائفة.

وأعطاهما التفاحة بنفسه. سألني بعدها:

- لماذا أتيت إلى هنا؟ هل تسليت من قبل إلى حديقتك؟
أجبت به سرور:

- حسنًا، تعال! سيسعدني ذلك.

أبهجت هذه الإجابة فإليك، وفكر في الأمر. قال بحزن:

- لكنني لست صديقك.

سألته بحزن بسبب نبرته الحزينة:

- ولماذا لا تكون صديقي؟

- والدك هو السيد القاضي.

سألته متعجبًا:

- وماذا في ذلك؟ ستلعب معي أنا لا مع والدي.

هز فإليك رأسه.

- لن يسمح تيبورتسي بذلك.

بدا كأن الاسم ذكره بشيء فجأة.

- اسمع! يبدو أنك فتى لطيف، ولكن الأفضل أن تنصرف الآن. إذا

وجدك تيبورتسي فستسوء الأمور.

وافقته على أن موعد انصرافي حان فعلاً. كانت أشعة الشمس

الأخيرة تغرب فعلاً عبر نافذة الكنيسة، والطريق إلى المدينة بعيد.

- كيف يمكنني الخروج من هنا؟

- سأريك الطريق. سنخرج معاً.

أشرت بإصبعي إلى السيدة الصغيرة:

- وماذا عنها؟

- ماروسيا؟ ستأتي معنا هي أيضاً.

- كيف؟ من النافذة؟

استغرق فاليك في التفكير.

- لا. سأقول لك كيف. سأساعدك لتصل إلى النافذة، أما نحن
فستخذ طريقاً آخر.

استطعت الصعود إلى النافذة بمساعدة رفيقي الجديد. فككت
الحزام ولففته حول إطار النافذة، وتدلّيت في الهواء ممسكاً بالطرفين ثم
فككت أحد الطرفين وقفزت على الأرض، وانتزعت الحزام. وجدت
فاليك وماروسيا في انتظاري فعلاً عند الجدار في الخارج.

كانت الشمس قد غربت لتوّها خلف الجبل. غاصت المدينة في
ظل أرجواني ضبابي، ولم تظهر سوى قمم بعض أشجار الحور على
الجزيرة بحدّة وقد طلّتها أشعة شمس الغروب الأخيرة باللون الذهبي.
بدا لي أن يوماً على الأقل قد مر منذ وصولي إلى هنا عند المقبرة
القديمة، وأن كل ما حدث قد حدث بالأمس. قلت مبتهجاً بانتعاش
المساء القادم، مستنشقاً البرودة الرطبة، مالئاً بها صدري:

- كم تبدو الحياة جميلة هنا!

قال فاليك بحزن:

- الحياة هنا مملة.

سألته عندما بدأ ثلاثتنا هبوط الجبل:

- هل تعيشون جميعاً هنا؟

- نعم.

- أين منزلك؟

لم أستطع تصور أن أطفالاً يمكنهم أن يعيشوا من دون منزل.
ابتسم فاليك ولم يُجب بشيء وقد بدا الحزن على مظهره كالمعتاد.
تخطينا منحدرات شديدة وعرف فاليك الطرق الأصلح للمرور.
بمرورنا بين القصب في المستنقع الجاف وعبورنا الجدول فوق ألواح
رقيقة، وجدنا أنفسنا عند سفح الجبل؛ وصلنا إلى الأرض المستوية.
هنا توجب علينا أن نفرق. صافحت رفيقي الجديد وصافحت
الفتاة الصغيرة. مدت لي بلطف يدها الصغيرة، ونظرت إليَّ بعينها
الزرقاوين من رأسي وحتى قدمي وسألتني:
- هل ستأتي إلينا مجدداً؟
- سأتي بالطبع.
قال فاليك، مستغرقاً في التفكير:
- تعال بالطبع، ولكن من الأفضل أن تأتي في الوقت الذي يكونون
فيه في المدينة.
- من هم؟
- تيپورتسي ولافروفسكي وتوركيفيتش. الأستاذ، ربما لن يعارض.
- حسناً، عندما أجدهم في المدينة سأتي إليكما. وداعاً!
عندما ابتعدت بضع خطوات صاح فاليك:
- مهلاً، اسمع. لن تقول لأحد شيئاً عما حدث، أليس كذلك؟
أجبت بهزيم:

- لن أقول لأحد شيئاً.

- حسناً، هذا جيد. إذا ضايقت هؤلاء الحمقى قلّ لهم إنك رأيت الشيطان.

- حسناً، سأقول لهم ذلك.

- وداعاً.

- وداعاً.

عندما اقتربت من سياج حديقتي كان شفق كثيف قد غطى أفق كنياجي فينو. شعّ هلال رقيق فوق القلعة، وتوهجت النجوم. كنت على وشك تسلق السياج ولكن أحدهم أمسكني من يدي. قال صديقي الهارب بهمس مضطرب:

- فاسيا، صديقي، كيف حالك يا عزيزي؟

- كما ترى. تركتموني جميعاً.

أخفض رأسه، ولكن فضوله تغلب على خزيه فسألني مجدداً:

- ماذا كان هناك؟

أجبتّه بنبرة لا تسمح بأدنى شك:

- شياطين بلا شك. أنتم جبناء.

ابتعدت عن رفيقي المضطرب وتسلقت السياج.

بمرور ربع ساعة كنت قد استغرقت بالفعل في نوم عميق، ورأيت في نومي شياطين حقيقية تتقاذف بمرح عبر الكوة السوداء. انهمك فاليك في مطاربتها، أما ماروسيا فأخذت تطرف بعينيها بمرح وتضحك وتصفق.

التعارف الجديد يستمر

منذ هذا الحين انشغلت تمامًا بأصدقائي الجدد. صرت لا أفكر في شيء في المساء في أثناء استلقائي على الفراش، وفي الصباح في أثناء نهوضي، إلا في زيارتي القادمة للجبل. صار تسكعي في شوارع المدينة يهدف إلى أمر بعينه؛ أن أنظر ما إذا كانت الصحبة التي وصفها يانوش بـ«صحبة سيئة» موجودة كلها أم لا، وإذا وجدت لافروفسكي ممدداً فوق البركة وتوركيفيتش وتيبورتسي يخطبان في مستمعيهما، وبقية الهياكل القائمة تتجول في السوق، أتوجه ركضاً إلى الجبل والكنيسة، مروراً بالمستنقع، وأكون قد ملأت جيبي سابقاً بالتفاح الذي أستطيع قطفه من الحديقة من دون حظر، والأطعمة الشهية التي أحتفظ بها دائماً لصديقي الجديدين.

اتسم فاليك بشكل عام برزانة شديدة، وقد غرس في داخلي الاحترام تجاهه بسلوكياته الرزينة، وكان يقبل ببساطة هذه التقدّمات، وفي أغلب الأحيان يحفظها في مكان آمن لأجل أخته، أما ماروسيا فكانت في كل مرة ترفع يديها الصغيرتين وتشع عينها بوميض من البهجة وترسم الضحكة على وجهها الشاحب وتحمر وجنتاها. وتتردد ضحكة رفيقنا الصغيرة في قلوبنا، مكافأة على الطعام الحلو الذي ضحينا به من أجلها.

كانت مخلوقاً واهناً وشاحباً، وقد بدت لي كزهرة نمت في غياب أشعة الشمس. بغض النظر عن سنيها الأربع، كانت تخطو بشكل سيئ، وتطأ الأرض بأرجلها الملتوية بتردد، فتترنح كورقة نبات، كما اتسمت ذراعاها بالصغر، بل وبدتا كما لو أنهما شفافتان، بينما يهتز رأسا الصغير على عنقها الرفيع كنبته جرس الحقل على ساقها الرفيعة. بدت عيناها حزيتين للغاية، بطريقة غير طفولية، وذكرتني ابتسامتها بأمي في أيامها الأخيرة حينما اعتادت الجلوس أمام النافذة والرياح تهز خصلات شعرها الشقراء؛ الأمر الذي بعث في نفسي في ذلك الحين حزناً شديداً ودفعني إلى البكاء.

وجدت نفسي تلقائياً أقارنها بأختي، فكلتاها في العمر ذاته تقريباً، ولكن عزيزتي سونيا كانت مستديرة ككعكة ومرنة ككرة. اعتادت الركض بخفة عندما تريد اللعب وتتردد أصداء ضحكها في المكان، ترتدي دائماً ثياباً جميلة، وفي كل يوم تنسج لها الخادمة شريطاً قرمزيًا في شعرها الداكن.

أما صديقتي الصغيرة فلا تركض تقريباً ونادراً ما تضحك، وإذا ضحكت تبدو ضحكها كرنين أصغر جرس فضي من النوع الذي لا يمكنك سماع رنينه على بُعد عشر خطوات. كان فستانها قذراً ولا شرائط في شعرها، لكن شعرها كان أكبر وأشد كثافة من شعر سونيا، والأمر الذي أدهشني هو أن فاليك عرف جيداً كيف يضفره بمهارة، وهو أمر اعتاد أن يفعله كل صباح.

اتسمتُ برعونة شديدة. يقول عني الكبار: «تمتلى أيدي هذا الصغير

وأرجله بالزنابق»، وأصدقهم على الرغم من أنني لا أستطيع أن أتصور بوضوح من أجرى هذه العملية عليّ، وكيف أجراها. في الأيام الأولى جلبتُ حيويتي إلى حياة معارفي الجدد. لم تُردّد بين حوائط الكنيسة الصغيرة تقريباً صدى صيحات عالية مثلما حدث في الوقت الذي حاولت فيه حث فاليك وماروسيا وإغراءهما على اللعب معي. إلا أن النتيجة لم تكن جيدة. نظر فاليك إليّ بجدية وإلى الفتاة، وما إن أجبرتها على الركض معي حتى قال: «لا، ستجعلها تبكي هكذا». بالفعل، عندما أزعجت ماروسيا وأجبرتها على الركض، اتبعت خطواتي وفجأة استدارت ورفعت يدها الصغيرة فوق رأسها، كما لو أنها تحمي نفسها من شيء، ونظرت إليّ نظرة عاجزة كطائر مسحوق، وانخرطت في البكاء بصوت عالٍ. فقدت رباطة جأشي تمامًا. قال فاليك:

- أرايت؟ إنها لا تحب اللعب.

أجلسها على العشب وأخذ يقطف لها بعض الزهور ويرميها إليها. توقفت عن البكاء وأخذت تفحص الزهور بهدوء، وقالت شيئاً ما مخاطبة عشب الحودان الذهبي، وقربت زهور الأجراس الزرقاء من شفيتها. استكنت أنا أيضاً واستلقيت بجانب فاليك بالقرب من الفتاة. سألته أخيراً، مشيراً بعيني إلى ماروسيا:

- لماذا حالها كذلك؟

- أعتقد أنها تعيسة؟

سألني فاليك، ثم قال بلهجة إنسان مقتنع بما يقوله تمامًا:

- كما ترى، كل هذا بسبب الحجر الرمادي.

كررت الفتاة من خلفه كصدى خافت:

- نعم، كل هذا بسبب الحجر الرمادي.

- ما حكاية الحجر الرمادي؟

أوضح فاليك، وهو لا يزال ينظر إلى السماء:

- امتص الحجر الرمادي الحياة منها. هذا ما قاله تيورتسي، وهو

يعرف هذه الأمور جيدًا.

كررت الفتاة من خلفه كصدى خافت مجددًا:

- نعم. تيورتسي يعرف كل شيء.

لم أفهم شيئًا من هذه العبارات الغامضة التي كررها فاليك عن تيورتسي، ولكن حجة أن تيورتسي يعرف كل شيء أثرت عليّ. استندت إلى مرفقي ونظرت إلى ماروسيا. كانت جالسة بالوضع ذاته الذي أجلسها به فاليك، وواصلت تفحص الأزهار، وبدأت حركة يديها الصغيرتين بطيئة، وبرزت عيناها الزرقاوان الداكنتان من وجهها الشاحب، وقد خففت رموشها الطويلة. بالنظر إلى هذا الجسد الحزين الصغير اتضح لي أن كلمات تيورتسي - على الرغم من أنني لم أفهم معناها - تضمنت حقيقة مرة. لا شك أن أحدهم يمتص الحياة من هذه الفتاة الغريبة التي تبكي بينما يضحك الآخرون في موقفها هذا. لكن كيف يستطيع الحجر الرمادي أن يفعل ذلك؟

بدا هذا اللغز لي أفتع من كل أشباح القلعة. مهما كانت فضاة

الأتراك الكامنين تحت الأرض ومهما بدا الكونت العجوز الذي يُهدّثهم في الليالي العاصفة مريعاً، فإن كل ذلك بدا حكاية خرافية قديمة. أما هنا فكان شيء غامض ورهيب؛ شيء عديم الشكل، صلب كالحجر بلا رحمة، ينحني فوق هذا الرأس الصغير ويمتص منه الحمرة وبريق العينين وحيوية الحركة. قلت في نفسي «لا بد أن هذا الأمر يحدث ليلاً»، وشعرت بندم مؤلم لدرجة تعتصر القلب. خفّت درجة مرحي بتأثير هذا الشعور. انسجماً مع الصلابة الهادئة للسيدة الصغيرة، جلستُ بصحبة فاليك في مكان ما على العشب، وأخذنا نجمع زهوراً وحصى متنوع الألوان، واصطدنا لها بعض الفراشات، وصنعنا لها أحياناً بعض الفخاخ لاصطياد العصافير. أحياناً نستلقي إلى جانبها على العشب وننظر كيف تطفو الغيوم عالياً في السماء فوق السقف الأشعث للكنيسة القديمة، ونحكي لها بعض الحكايات أو نتحدث معاً. بمرور الأيام دعمت هذه المحادثات قوة صداقتي بفاليك، ونمت هذه الصداقة على الرغم من التناقض الحاد بين شخصياتنا. كان على النقيض من مرحي المتهور بحزنه الصلب، وجعلني أحترم سلطته ونبرته المستقلة التي اعتاد التحدث بها عن الكبار. علاوة على ذلك اعتاد أن يخبرني أموراً جديدة لم أفكر فيها من قبل. عندما سمعت كيف يتحدث عن تيورتسي كما لو أنه يتحدث عن رفيق له سألته:

– هل تيورتسي هو والدك؟

أجابني وقد استغرق في التفكير، كما لو أن هذا السؤال لم يخطر على باله من قبل:

- لا بد وأنه والدي.

- هل يحبك؟

أجاب بثقة أكبر:

- نعم يحبني. إنه يعتني بي دائماً، وأحياناً يُقبِّلني ويبيكي.

أضافت ماروسيا بفخر طفولي هي أيضاً:

- ويحبني أنا أيضاً.

قلت بحزن:

- أما أبي فلا يحبني. لم يُقبِّلني قط. إنه سيئ.

عارضني فاليك:

- غير صحيح. غير صحيح. أنت لا تفهم. تيورتسي يفهم أفضل

من الجميع وهو يقول إن القاضي أفضل إنسان في المدينة، وإن

المدينة كانت لتنهَار منذ زمن بعيد لولا أبوك والكاهن الذي

أرسلوه قريباً إلى الدير، وحاخام يهودي أيضاً. ثلاثتهم وحسب.

- ماذا عن ثلاثتهم؟

- بسبب ثلاثتهم فقط لم تنهَر المدينة. هذا ما يقوله تيورتسي، فهم

مَن لا يزالون يدافعون عن الفقراء. أتعرف ماذا فعل أبوك؟ لقد

حكم على الكونت.

- هذا صحيح، وسمعت أن الكونت غضب غضباً شديداً.

- أترى؟ إصدار حكم قضائي على كونت ليس مسألة بسيطة.

- لماذا؟

- لماذا؟! (كرر فاليك متحيراً بعض الشيء) لأن الكونت ليس شخصاً عادياً. يفعل الكونت ما يشاء ويركب عربته ثم... لديه نقود، ولو كان القاضي شخصاً آخر غير أبيك لأعطاه مالا وفي هذه الحالة لم يكن القاضي ليدين أحداً سوى الفقير.

- هذا صحيح. سمعت أن الكونت صاح في شقتنا: «يمكنني أن أشتريكم وأبيعكم جميعاً».

- وماذا فعل القاضي؟

- سمعت أبي يقول له: «اغرب من هنا».

- أرايت؟ أرايت؟ يقول تيبورتسي إن أباك لم يخش أن يطرد شخصاً غنياً، وعندما ذهب إليه إيفانيخا العجوز أمر أن يجلبوا له كرسيًا. أترى أي شخص هو؟! حتى توركيفيتش لم يؤدّ تحت نوافذ بيته أيًا من فضائحه.

كان هذا صحيحًا. اعتاد توركيفيتش طوال رحلاته القضائية أن يلزم الصمت في أثناء عبوره بالقرب من نوافذنا، بل كان أحيانًا يخلع قبعته.

أجبرني كل ذلك على التفكير بعمق. كشف فاليك لي عن جانب في والدي لم أفكر قط في النظر إليه. ضربت كلمات فاليك على وتر فخر الأبناء بأبائهم في قلبي، وراقني أن أستمع إلى مديحه لأبي؛ خاصة عندما يكون مصدر الحديث تيبورتسي الذي «يعرف كل شيء»، ولكن علاوة على ذلك ترددت في قلبي نغمة الحب المؤلم والممتزج بالوعي المرير بأن هذا الإنسان لم يحبني قط مثلما يحب تيبورتسي أطفاله.

بين الأحجار الرمادية

مرت بضعة أيام أخرى. توقف أعضاء «الصحبة السيئة» عن الظهور في المدينة، وعبثًا واصلت تسكعي في شوارع المدينة، شاعراً بالملل، في انتظار ظهورهم حتى أتمكن من الإسراع إلى الجبل. وحده «الأستاذ» سار مرة أو مرتين بمشيته الناعسة، ولكن لم يظهر توركيفيتش أو تيپورتسي بتاتاً. شعرت باشتياق شديد، فعدم رؤية فاليك وماروسيا صارت خسارة كبيرة لي. لكن ذات مرة، بينما أسير، خافض الرأس، في الشارع المغبر، وجدت فاليك قد وضع يده فجأة على كتفي وسألني:

- لماذا لم تعد تأتي إلينا؟

- خفت. لم أرَ أحداً من جماعتكم هنا في المدينة.

- آه! لم أفكر حتى في إخبارك بأنهم غير موجودين وأن أقول لك تعال. ظننت شيئاً آخر.

- ماذا؟

- ظننت أنك مللت.

- لا، لا. سأركض إليكم الآن حالاً يا أخي، والتفاح معي أيضاً.

ما إن ذكرت التفاح حتى استدار فاليك صوبي سريعاً، كما لو أنه أراد أن يقول شيئاً، لكنه لم يقله، بل ظل ينظر إليّ بطريقة غريبة. حينما رأيته أنظر إليه منتظراً أن يقول شيئاً، طوّح بذراعه قائلاً:

- لا شيء! لا شيء! اذهب إلى الجبل مباشرة، وسأخرج فقط على مكان وألحق بك في الطريق.

سرت متمهلاً، أتلفت كثيراً حولي، في انتظار أن يلحق بي فاليك، إلا أنني صعدت الجبل ووصلت إلى الكنيسة ولم أجده. توقفت في حيرة، فلا يوجد أمامي شيء سوى المقبرة الخاوية والهادئة من دون أي علامة على سكنها، ولم يوجد شيء سوى عصفير تزقزق بحرية فوق الأجمات الكثيفة لخوخ البادي والليلك العالقة بالجدار الجنوبي للكنيسة، وتتناهى إلى المرء همسات هذه الأجمات الكثيفة. تلفت حولي. إلى أين أمضي الآن؟ من الواضح أنني يجب أن أنتظر فاليك. في هذه الأثناء سرت بين المقابر لألقي نظرة عليها، فلا شيء يمكنني أن أفعله، وحاولت أن أتبين النقوش القديمة الممحوة على شواهد القبور التي غطتها الطحالب. بينما أتسكع من مقبرة إلى مقبرة بهذه الطريقة، صادفت قبراً واسعاً ومتداعياً، وقد تداعى سقفه بسبب سوء الطقس وسقط في هذا المكان. وجدت بابه مغلقاً. دفعني الفضول إلى وضع صليب قديم على الحائط واعتليته لألقي نظرة على ما يوجد داخل المكان. كان القبر فارغاً إلا من إطار نافذة بألواح على الأرض في منتصفه، ويلوح عبر هذه الألواح الفراغ المظلم لما هو تحت الأرض. بينما انشغلت في تفحص القبر، متسائلاً عن الغرض الغريب

لوجود هذه النافذة، جاء فاليك راكضًا، صاعدًا الجبل، ومنهكًا. وجدته
يمسك كعكة يهودية كبيرة، وشيئًا آخر كبيرًا يتنفخ في صدره، وقطرات
العرق تتصبب من وجهه. صاح عندما رأي: .

- آه! أين أنت؟ إذا رآك تيورتسي فسيغضب. حسنًا، ما في اليد
حيلة. أعرف جيدًا أنك فتى صالح وأنتك لن تحكي لأحد شيئًا
عن الطريقة التي نعيش بها. لنمضِ إلى سكننا.

- هل هو بعيد؟

- سترى بنفسك. اتبعني.

أفسح طريقًا بين أجمات صريمة الجدي والليلك وتواري وسط
بقعة خضراء خلف جدار الكنيسة. تبعته إلى هناك ووجدت نفسي في
منطقة ضيقة داستها الأقدام جيدًا ومتوارية بأكملها وسط الخضرة. وسط
سيقان خوخ البادي رأيت حفرة كبيرة في الأرض تتضمن درجات ترابية
تؤدي إلى أسفل. هبط فاليك ودعاني إلى الهبوط خلفه، وبمرور بضع
ثوانٍ كنا في الظلام تحت الأرض الخضراء. أمسك فاليك بيدي وقادني
عبر ممر ضيق ورطب، وبعد أن انعطفنا بحدة إلى اليمين وجدنا أنفسنا
فجأة في سرداب واسع تحت الأرض.

توقفت عند المدخل مشدوًهاً بالمشهد الغريب. تدفق تياران
من الضوء بحدة من الأعلى وقد قسما الخلفية المظلمة للسرداب
بخطوطهما. مر هذا الضوء عبر نافذتين؛ إحداهما هي التي رأيتها في
أرضية القبر، والأخرى على مسافة أبعد منها، ويبدو أنها متصلة بالمكان
بالطريقة ذاتها. لم تصل أشعة الشمس إلى هنا مباشرة، بل انعكست أولاً

على الجدران القديمة للمقبرة، وتسربت عبر الهواء الرطب للسرداب وسقطت على الألواح الحجرية على الأرض، وانعكست عليها لتملأ السرداب كله بانعكاساتها الباهتة، وكانت الجدران هي الأخرى حجرية. ارتفعت الأعمدة العريضة والكبيرة من أسفل ومدت أقواسها الحجرية في كل الاتجاهات، وتشابكت بإحكام بالسقف المقبب. رأيت اثنين يجلسان على الأرض في المساحة المضيئة: «الأستاذ» العجوز وقد أمال رأسه يغمغم بشيء ما وانهمك في خياطة بعض خرقة. عندما دخلنا السرداب لم يرفع حتى رأسه، ولولا حركات يديه الطفيفة لظننت هذا الجسد الرمادي تمثالاً حجرياً رائعاً. وماروسيا وقد جلست تحت نافذة أخرى وانهمكت كعادتها في تفحص باقة من الزهور. سقط شعاع ضوء على رأسها الأشقر وغمرها كلها، ولكن بصرف النظر عن ذلك لاح جسدها خافتاً على خلفية الحجر الرمادي الغريب مع بقعة ضبابية صغيرة وغريبة بدت أنها على وشك التلاشي والاختفاء. عندما تمر الغيوم بالأعلى، فوق الأرض، حاجبة ضوء الشمس، تغرق جدران السرداب في الظلام تماماً، كما لو أنها تحركت وغادرت إلى مكان ما ثم تبرز مجدداً بحجارتها الصلبة الباردة وتعاقد بقوة جسد الفتاة الصغير. وجدتني أتذكر تلقائياً كلمات فاليك عن «الحجر الرمادي» الذي يمص البهجة من ماروسيا، واكتنف قلبي شعور خوف خرافي، وبدا لي أنني أشعر بنظرة حجرية غير مرئية تحمق إلينا. بدا لي أن هذا السرداب يحفظ ضحيته بحرص.

- فاليك!

ابتهجت ماروسيا بهدوء حينما رأت أخاها. عندما رأتني شعت شرارة في عينيها.

أعطيتها التفاح، وقسّم فاليك الكعكة وأعطها قطعة وأعطى قطعة أخرى للـ«أستاذ». قبل العالم البائس هذا العرض بلا مبالاة، وبدأ يعضّها من دون أن يتوقف عن عمله. تململت وارتجفت كما لو أنني مقيد بالنظرة القمعية للحجر الرمادي. جذبت فاليك قائلاً:

- لنمض. لنمض من هنا. خذها معك.

قال فاليك لأخته:

- لنذهب يا ماروسيا.

صعد ثلاثتنا من السرداب، ولكن حتى بالأعلى لم أتوقف عن الشعور بنوع من الارتباك الشديد. بدا فاليك أشد حزنًا وصمتًا من العادي. سألته:

- هل بقيت في المدينة إذن لتشتري الكعكة؟

- أشتري؟ (قالها فاليك ضاحكًا) ومن أين أحضر المال؟

- كيف أخذتها إذن؟ تسولتها؟

- نعم، نعم، تسولتها. من الذي يمكنه أن يعطيني إياها؟ لا يا أخي. انتزعتها خلسة من صينية بائعة يهودية، ولم تلحظني.

قال ذلك بنبرة عادية وقد تمدد وشبك يديه تحت رأسه. استندت

إلى مرفقي ونظرت إليه وقلت:

- أتعني أنك سرقتها؟

- نعم.

استلقيت على العشب مجددًا ولزمت الصمت لبضع دقائق. قلت له
في استغراق حزين:

- السرقة أمر سيئ.

- لقد غادرت جماعتنا كلها. بكت ماروسيا بسبب الجوع.

كررت الفتاة ببراءة حزينة:

- نعم، جعت.

لم أكن قد عرفت بعد ماذا يعني الجوع، ولكن مع كلمات الفتاة
الأخيرة اختلج شيء ما في صدري، ونظرت إليهما كأني أشاهدهما
لأول مرة. ظل فاليك - كما كان - مستلقيًا على العشب، مراقبًا صقرًا
محلّقًا في السماء. لم يعد يبدو لي الآن صاحب سلطة كبيرة كما كان،
وعندما رأيت ماروسيا تمسك قطعة الكعكة بكلتا يديها انقبض قلبي.

سألته بصعوبة:

- لماذا لم تخبرني من قبل؟

- أردت أن أخبرك ثم غيّرت رأيي، فأنا أعرف أنك لا تملك مالًا.

- وماذا في ذلك؟ كنت سأحضر كعكة من المنزل.

- كيف؟ خلصة؟

- نعم.

- هذا يعني أنك كنت لتسرق.

- أنا... من والدي.
- هذا أسوأ. (قالها فاليك بيقين) لم أسرق قَط والدي.
- كنت سأطلب منه إذن، وكان ليعطيني.
- ربما يعطيك مرة واحدة. لكن من أين سيأتي بما يُمكنه أن يُشبع به كل المتسولين؟
- سألته بصوت منخفض:
- وهل أنتم متسولون؟
- أجاب فاليك بحدة متجهمة:
- نعم.
- صمتُ، وبمرور بضع دقائق بدأت أودعهما. سألني فاليك:
- هل ستمضي؟
- نعم، سأمضي.
- مضيت لأنني لم أستطع في هذا اليوم أن ألعب مع صديقي بصفاء كالماضي. تشوشت عاطفتي الطفولية البريئة بشكل ما. على الرغم من أن حبي لفاليك وماروسيا لم يضعف، فإن تيارًا حادًا من الأسف مازجه ووصل إلى درجة تؤلم القلب. استلقيت على الفراش مبكرًا لأنني لم أعرف إلى أين أمضي بشعوري المؤلم الجديد هذا الذي يغمر نفسي. دفنت وجهي في الوسادة واستغرقت في بكاء مرير حتى وجدت الراحة من حزني الشديد في نومي العميق.

ظهور السيد تيبورتسي على مسرح الأحداث

- مرحبًا. ظننت أنك لن تعود مجددًا.

هكذا التقى بي فاليك عندما صعدت الجبل في اليوم التالي. فهمت لماذا قال ذلك. قلت بحزم حتى أنهى هذه المسألة تمامًا:
- لا، سأتي دائمًا.

ابتهج فاليك وشعر كلانا بقدر أكبر من الحرية.

- حسنًا. أين جماعتكم؟ ألم تعد بعد؟

- ليس بعد. الشيطان وحده يعرف أين هي.

شرعنا بعدها في بناء مصيدة ماهرة للعصافير، وقد أحضرت معي خيطًا لهذا الغرض. أعطيت الخيط لماروسيا، وعندما قفز عصفور متهور، اجتذبه الحبوب إلى الفخ، بلا مبالاة، سحبت ماروسيا الخيط وأغلقت الغطاء فوق الطائر الصغير، ثم حررناه فيما بعد.

في هذه الأثناء، قرابة الظهر، ظهرت سحابة قاتمة، متوعدة ومكفهرة، ومع دوي الرعد القوي انهزم المطر. في البداية لم أُرِد الهبوط إلى السرداب، وبعد ذلك، حينما فكرت في أن فاليك وماروسيا يعيشان فيه دائمًا، غالبت شعوري بالضيق وذهبت إلى هناك معهما. كان

السرداب مظلمًا وهادئًا، ولكننا سمعنا هدير العاصفة الرعدية كما لو أن أحدهم يقود عربة ضخمة على طول جسر ضخم. بمرور بضع دقائق شعرت بالراحة في السرداب، واستمعنا بسرور كيف تستقبل الأرض سيول الأمطار الغزيرة، وضبطنا أعصابنا على الدندنات والصدمات والدمدمات المتكررة، وقد بثت فينا حيوية تتطلب منفذًا لها. اقترحت عليهما:

- لنلعب الغميضة!

عصبا عيني. سمعت حركة ماروسيا، بضحكتها الضعيفة والباءة وكيف تدق على الأرضية الحجرية بقدميها الصغيرتين والضعيفتين. تظاهرت أنني لا أستطيع الإمساك بها، ثم شعرت فجأة أنني أمسكت جسدًا مبللًا، وفي هذه اللحظة شعرت أن أحدهم أمسكني من قدمي. رفعتني يد قوية عن الأرض ووجدت نفسي معلقًا في الهواء بالمقلوب. سقطت العصابة من على عيني.

بدا تيورتسي المبلل والغاضب أشد إثارة للהלح لأنني رأيته بالمقلوب، وقد أمسك بقدمي ونظر إليّ باحتياج. سأل فاليك بحدة:

- ومن هذا أيضًا؟ يبدو أنك تستمتع هنا بوقتك وقد وجدت صحبة مسلية.

- اتركني.

قلت له ذلك، مندهشًا من أنني لا أزال قادرًا على التحدث في هذا الوضع غير المعتاد، ولكن يد السيد تيورتسي ضغطت قدمي بقوة أشد.

- Responde^(٥٣) . أجب .

استدار مجدداً بتهديد صوب فالك الذي واجه هذا الموقف الصعب بوضع إصبعين في فمه، كما لو أنه يؤكد أنه ليس لديه ما يقوله بتاتاً.

لاحظت أمرّاً واحداً؛ ألا وهو أنه ظل يتابع جسدي البائس الذي ظل يتأرجح كالبنديل في الفضاء بعينين متأثرتين وبقدر كبير من التعاطف. رفعني السيد تيبورتسي ونظر إلى وجهي.

- إيه! سيدي القاضي إذا لم تخذعني عيناى. لماذا تكرمت بزيارتنا؟ قلت له بعناد:

- اتركنى. اتركنى الآن.

قلت ذلك وأديت حركة تلقائية كما لو أنني أنوي ركله بقدمي، لكن كل ما حدث إثر ذلك أنني تأرجحت بمزيد من القوة في الهواء. ضحك تيبورتسي.

- أوه! أوه! السيد القاضي غاضب! حسناً، أنت لا تعرفني! أنا تيبورتسي^(٥٤). سأعلقك فوق النار وأشويك كخنزير.

شعرت أن ذلك سيكون مصيري الحتمي حقاً، خاصة أن شكل فالك اليائس دغم إمكانية انتهاء أمري بهذه الصورة المؤسفة. لحسن الحظ هرعت ماروسيا لنجدتي.

(٥٣) أجب . (بالفرنسية).

(٥٤) باللاتينية في الأصل.

- لا تخف يا فاسيا، لا تخف. (هكذا شجعتني واقتربت من قدمي تيورتسي) إنه لا يشوي الأطفال أبدًا في النار. هذا كذب.
- استدار تيورتسي بحركة سريعة صوبي ووضعني على قدميه. كدت أسقط بسبب شعوري بالدوار لكنه سندني بيده ثم جلس على جذع خشبي ووضعني بين ركبتيه. واصل استجوابه:
- كيف وصلت إلى هنا؟ هل جئت منذ وقت بعيد؟ تكلم.
- عندما لم أجب بشيء التفت إلى فاليك الذي أجابه:
- منذ وقت طويل بالفعل.
- منذ متى وهو يأتي إلى هنا؟
- ستة أيام.
- بدا أن هذه الإجابة منحت السيد تيورتسي بعض المتعة.
- أوه! ستة أيام؟! (قالها والتفت صوبي) ستة أيام فترة طويلة، وطوال هذا الوقت لم تخبر أحدًا إلى أين تمضي؟
- لم أخبر أحدًا.
- فعلاً؟
- لم أخبر أحدًا.
- جيد^(٥٥). أمر جدير بالثناء. يمكننا الاعتماد إذن على أنك لن تثرثر في المستقبل. مع ذلك اعتبرتك دائمًا شخصًا لائقًا ولطيفًا

(٥٥) بالإيطالية في الأصل.

حينما كنت ألتقي بك في الشارع. اعتبرتك ابن شارع حقيقياً
حتى لو كنت قاضياً. هل ستحكم علينا؟ ها؟
تحدث بقدر كبير من السماحة لكني ظلت أشعر بالإهانة العميقة
ولذلك أجبته بغضب شديد:

- لست قاضياً على الإطلاق. أنا فاسيا.

- وماذا في ذلك؟ يمكن لفاسيا أيضاً أن يصير قاضياً. ليس الآن
ولكن فيما بعد. هذا ما يحدث يا أخي منذ الأزل وإلى الأبد.
كما ترى، أنا تيبورتسي وهو فاليك. أنا متسول وهو متسول. إذا
تحرّيت الصراحة فأنا أسرق وهو سوف يسرق، وسيحكم عليّ
والدك، وأنت أيضاً سوف تحكم عليه يوماً ما. هكذا هو الأمر.

عارضته بعناد:

- لن أحكم على فاليك.

- غير صحيح.

- لن يفعل.

هكذا أيدتني ماروسيا لتبعد عني بيقين كامل هذه الشكوك الرهيبة.
تشبّث الفتاة بثقة بقدمي هذا الشخص الغريب، وأخذ الأخير يمسد
على شعرها الأشقر بلطف بيده النحيلة. خاطبني، مستغرقاً في التفكير،
قائلاً بلهجة من يتحدث مع بالغين:

- لا تحك لأحد شيئاً عن ذلك فيما بعد يا صديقي^(٥٦). هكذا هي
القصة منذ الأزل وإلى الأبد، فلكل نصيبه، وكل يشق طريقه. من
يدري؟ قد يكون حسناً أن مر طريقك بطريقنا. الأمر جيد لك
يا صديقي لأن في صدرك قطعة من قلب إنساني بدلاً من حجر
بارد. أتفهمني؟

لم أفهم شيئاً، لكنني مع ذلك ثبتت عيني على وجه هذا الإنسان
الغريب. حدّقت عينا السيد تيورتسي إليّ ولمع فيهما وميض غريب بدا
كما لو أنه يخترق نفسي.

- أنت لا تفهم بالطبع لأنك لا تزال طفلاً. لذلك سأقول لك
باختصار، وفي يوم ما ستذكر كلمات الفيلسوف تيورتسي. إذا
توجب عليك يوماً ما أن تحكم عليه، تذكر أنه في الوقت الذي
كنتما فيه حمقى وتلعبان معاً، كنت تجوب الطريق بسرراويل
جيدة وكميات كبيرة من المؤن بينما هو يركض في الطريق
بسرراوله الممزق وبطن خاو. مع ذلك، وحتى يحين هذا الوقت
(تغيرت نبرته وتحدث بحدة)، تذكر جيداً أمراً آخر: إذا ثرثرت
أمام القاضي أو حتى أمام طائر يطير بالقرب منك في الحقل عما
رأيت هنا، فلن أكون تيورتسي دراب إذا لم أعلقك من قدميك
فوق هذا الموقد وأجعلك لحم خنزير مدخنًا. أرجو أن تكون قد
فهمت ذلك جيداً. أفهمت؟

- لن أقول لأحد شيئاً. هل يمكنني العودة الآن؟

(٥٦) صديقي (باللاتينية في الأصل).

- يمكنك، ولكن بشرط واحد^(٥٧). أنت لا تزال غيبًا ولا تفهم اللاتينية. أخبرتك أنني سأجعلك قطعة لحم خنزير مدخن. تذكر ذلك جيدًا.

أطلق سراحه، وبدا عليه الإنهاك وهو يتمدد فوق دكة طويلة بالقرب من الجدار. أشار لفاليك إلى سلة كبيرة تركها عند العتبة حينما دخل وقال:

- خذها من هناك واطهها على النار. سننخب غداء اليوم.

الآن صار شخصًا مختلفًا عن الذي أخافني منذ دقائق بسيطة بعينه اللتين دارتا في محجريهما، وصار مختلفًا أيضًا عن المهرج الذي يسلي الجمهور من أجل صدقة. صار في عيني سيد ورأس الأسرة العائد من عمله والذي يصدر أوامره لأفرادها.

بدا منهكًا. كان رداؤه مبللًا من المطر، وكذلك وجهه، وسقطت خصلات شعره المبللة على جبهته، وبان الإنهاك الشديد في كل مواضع جسده. كانت المرة الأولى التي أرى فيها هذا التعبير على وجه خطيب حانات المدينة المرح. بدا الأمر لي كما لو أنني ألقى نظرة على الممثل من خلف الكواليس، وهو يستريح بعد دوره الصعب الذي أداه على خشبة المسرح، وبدا لي الأمر كما لو أن شيئًا مخيفًا اكتنف قلبي. كان هذا واحدًا من الاكتشافات التي أنعمت بها عليّ بسخاء الكنيسة الروتينية القديمة.

(٥٧) باللاتينية في الأصل.

سرعان ما شرعت في العمل بصحبة فالك. أشعل فالك قطعة خشب صغيرة وتوجهت معه إلى الممر المظلم وقد اعتدت الأمر في السرداب.

هناك في الزاوية كانت بقايا قطع خشبية أوشكت على الفساد وشظايا صلبان وألواح قديمة. استعنا ببعض القطع من هذا المخزون ووضعتها في الموقد وأشعلنا النار. توجب عليّ بعد ذلك التراجع، وتولى فالك الطهي وحده بمهارة. بمرور نصف ساعة بدأ شيء ما يُطهى بالفعل في القدر، وفي انتظار أن يكتمل طهوه وضع فالك وعاء على الطاولة ذات الأرجل الثلاث، فاحت منه رائحة قطع اللحم المدخنة. نهض تيورتسي. قال:

- كل شيء جاهز؟ ممتاز. اجلس معنا أيها الصغير. لقد كسبت حق عشائك أيها السيد المعلم^(٥٨). (ثم صاح في «الأستاذ») اترك الإبرة وتعال اجلس معنا إلى الطاولة.

قال الأخير بصوت هادئ، وقد فاجأني بهذه الإجابة التي تنم عن وعيه بما يحدث حوله:

- حالاً.

إلا أن شرارة الوعي التي أثارها صوت تيورتسي لم تظهر في أي شيء آخر. وضع العجوز الإبرة في قطعة قماش، وجلس بلا مبالاة وبنظرة بليدة، على واحد من جذوع الأشجار التي لعبت دور المقاعد في السرداب.

(٥٨) السيد المعلم (باللاتينية في الأصل).

كانت ماروسيا بين يدي تيورتسي. تناولت هي وفاليك الطعام بنهم شديد أظهر بوضوح أن طبق اللحم شكّل بالنسبة إليهما ترفاً غير مسبوق، حتى إن ماروسيا كانت تلحق الدهن من على أصابعها. أكل تيورتسي على فترات متقطعة، وجعله امتثاله إلى الرغبة التي لا تقاوم في التحدث يلتفت صوب «الأستاذ» ويقول له شيئاً بين الحين والآخر. في الوقت نفسه أظهر العالم البائس اهتماماً استثنائياً، وأمال رأسه وظل يستمع إلى كل ما يُقال له بتعلُّل كما لو أنه يفهم كل كلمة. أحياناً يُعبر عن موافقته بإيماءة صامتة برأسه. قال تيورتسي:

– أنرى يا سيد^(٥٩) كيف لا يلزم الإنسان سوى القليل؟ ها نحن قد شبعنا ولا يلزمنا الآن سوى أن نشكر الله وكاهن مدينة كليفان.

أيده الأستاذ قائلاً:

– نعم. نعم.

– أنت تؤيد هذا يا سيد لكنك لا تفهم ما شأن كاهن كليفان بالأمر. أنا أعرفك جيداً. لولا كاهن كليفان لما كان لدينا طعام ساخن أو أي شيء آخر.

– هل كاهن^(٦٠) كليفان هو من أعطاك هذا؟

هكذا طرحت السؤال، وقد تذكرت الوجه المستدير الكريم لبروبوش كاهن كليفان الذي اعتاد زيارة والدي.

(٥٩) سيد (باللاتينية في الأصل).

(٦٠) الكلمة الروسية هنا تشير إلى كاهن كاثوليكي.

تابع تيپورتسي حديثه مع «الأستاذ»:

- هذا السيد الصغير يتمتع بعقل فضولي. أعطاني الكاهن فعلاً كل هذا على الرغم من أنني لم أسأله شيئاً، وربما لا يقتصر الأمر على أن يُسراه لا تعرف ما تعطيه يميناه^(٦١)، بل إن كلتا يديه لا تعرفان بتاتاً شيئاً عن الأمر. كُل يا سيد، كُل.

كل ما فهمته من هذا الحديث الغريب والمربك هو أن طريقة الحصول على هذا الطعام لم تكن عادية بتاتاً، ولم أستطع منع نفسي من التساؤل مجدداً:

- هل أخذت هذا الطعام... بنفسك؟

تابع تيپورتسي مجدداً:

- الصغير يتسم فعلاً بالفطنة. الشيء المؤسف هو أنه لم ير الكاهن من قبل. لديه بطن منفوخ يبدو كبرميل يزن ٤٠ لترًا، ومن ثم فإن الإفراط في تناول الطعام يضره بشدة. في الوقت نفسه نعاني جميعاً هنا من فرط النحافة، ومن ثم لا يمكننا أن نعتبر قدرًا من المؤمن شيئاً مفراطاً أو زائداً. أليس ما أقوله صحيحاً يا سيد؟

غمغم «الأستاذ»، مستغرقاً في التفكير مجدداً:

- صحيح.

- هذه المرة استطعت أن تُعبّر عن رأيك بنجاح كبير. ظننت أن عقل هذا الصغير أذكى من بعض العلماء. نعود الآن إلى الكاهن.

(٦١) إشارة إلى «وَأَمَّا أَنْتَ فَمَنْى صَنَعْتَ صَدَقَةً فَلَا تُعْرِفُ شِمَالَكَ مَا تَفْعَلُ يَمِينُكَ»، (متى ٦: ٣).

أعتقد أن الدرس الجيد يستلزم أن تدفع ثمنه، وفي هذه الحالة يمكننا أن نقول إننا اشترينا مؤناً منه. إذا أدى به ذلك إلى تدعيم باب مخزنه فسنصير متعادلين. (التفت إليّ فجأة) ولكنك لا تزال غيباً. وأمور كثيرة لا تفهمها، أما هي فتفهمها. قولي لي يا عزيزتي ماروسيا: أحسنًا فعلت بإحضار اللحم؟

أجابت الفتاة وقد لمعت عيناها قليلاً بلون فيروزي:

- حسنًا فعلت. أو شكت على الموت جوعاً.

قبالة مساء هذا اليوم عدت إلى منزلي برأس اكتنفه الضباب. لم تزحزح أحاديث تيپورتسي الغريبة قناعتني بأن السرقة أمر سيئ قيد أنملة. على النقيض؛ ازداد الشعور المؤلم الذي اختبرته قوةً. متسولون، لصوص، لا منزل لديهم. عرفت منذ زمن بعيد من المحيطين بي أن كل هذا يثير الازدراء. شعرت بكل مرارة الاحتقار تتصاعد من أعماق نفسي، لكنني وجدت نفسي تلقائياً أدافع عن أحبائي لئلا يمسهم هذا المزيج. أدت عملية نفسية غامضة إلى زيادة شعوري بالأسف على فاليك وماروسيا وتساعد حذته، لكن تعلقي بهما لم يتلاش. ظلت صياغة «السرقة أمر سيئ» حاضرة، ولكن عندما ترسم لي مخيّلتي الوجه المفعم بالحيوية لصديقتي وهي تلحق الدهن على أصابعها، أبتهج ببهجتها وببهجة فاليك.

التقيت مصادفةً بأبي في زقاق الحديقة المظلم. وجدته كعادته يسير متجهماً ذهاباً وإياباً وتبدو نظراته غائمة. عندما اقتربت منه أمسكني من كتفي قائلاً:

- من أين جئت؟

- كنت أتنزه.

نظر إليّ بعناية، وأراد أن يقول شيئاً، لكن نظرت غامت مجدداً، ولوّح بذراعه وسار على طول الزقاق. يبدو لي أنني فهمت حينها مغزى هذه الحركة. كأنه يقول: «وما الذي يهم بعد ذلك؟ لقد رحلت بالفعل». ربما كانت هذه المرة الأولى في حياتي التي أكذب فيها عليه. شعرت طوال الوقت بالخوف من أبي، أما الآن فقد تزايد خوفي. صرت أحمل في نفسي عالمًا كاملاً من أسئلة وأحاسيس غامضة. هل كان بوسعه أن يفهمني؟ هل كان بوسعي أن أعترف له بأي شيء من دون أن أخون أصدقائي؟ ارتجفت من فكرة أنه سيعرف يوماً ما عن علاقتي بـ«الصحبة السيئة»، لكنني لم أكن قادراً على خيانة هذه الصحبة؛ لم أكن قادراً على خيانة فاليك وماروسيا. علاوة على ذلك كان هناك ما يمكن وصفه بالمبدأ، ومن ثم إذا خنت المبدأ وتحذثت عنهما، فلن يكون بوسعي أن أرفع عيني إليهما بعد ذلك من فرط الخزي.



في الخريف

اقترب الخريف. بدأ الحصاد، واكتست أوراق الشجر بالأصفر. في الوقت ذاته بدأت عزيزتي ماروسيا تمرض.

لم تشكُّ من شيء، بل ازدادت نحولاً، وشحب وجهها، وأعتمدت عيناها وصارت ترفع جفونها بصعوبة.

صار بإمكانني الذهاب إلى الجبل من دون خوف من أن يكون أفراد «الصحبة السيئة» موجودين في منزلهم. اعتدت عليهم تمامًا وصرت أشعر في الجبل أنني واحد منهم. اعتاد توركيفيتش أن يقول لي:

- أنت فتى لطيف، ويومًا ما ستصير جنرالاً.

صنع لي بعض أصحاب الهياكل القائمة من الشباب أقواسًا ونشابًا من خشب الدردار، وكان ضابط المدفعية الطويل ذو الأنف الأحمر يطيرني في الهواء كشظية؛ الأمر الذي عودني على التمرينات الرياضية. وحده «الأستاذ» ظل على حاله غارقًا في أفكاره، بينما استمر لافروفسكي في تجنُّب الناس حينما لا يكون ثملًا ويتوارى في الزوايا. سكنت كل هذه الشخصيات بمعزل عن تيورتسي الذي سكن مع أسرته في السرداب الذي سبق وصفه. عاشت بقية أعضاء «الصحبة السيئة» في سرداب

مشابه، لكنه أكبر ويفصله عن السرداب الأول ممران ضيقان. كان الضوء هنا أقل كما توفر مزيد من الرطوبة والظلام. بطول الجدران انتصبت كتل خشبية وجذوع أشجار لعبت دور المقاعد. امتلأت الدكك بخرق وأسمال لعبت دور الأسرّة. في البقعة المضيئة في منتصف السرداب كانت طاولة نجارة، ومن وقت لآخر كان السيد تيبورتسي، أو واحد من الرفقة القاتمة، يعمل عليها أعمال نجارة، وضمت «الصحبة السيئة» إسكافياً وصانع سلال، ولكن باستثناء تيبورتسي، كان باقي الحرفيين إما هواة وإما معدمين وإما - كما لاحظت - أناساً ترتعش أيديهم بقوة بحيث لا يمكنهم تأدية العمل اليدوي بنجاح. تناثرت على أرضية هذا السرداب نشارة الخشب ومختلف أنواع المزق، وكان بالإمكان رؤية القذارة والفوضى في كل مكان فيه على الرغم من أن تيبورتسي اعتاد بين الحين والآخر أن يسب بشدة بسبب ذلك ويجبر شخصاً ما من السكان على التنظيف أو ترتيب هذا المسكن الكئيب بشكل أو بآخر. لم أذهب كثيراً إلى السرداب لأنني لم أستطع التعود على الأجواء الخائقة فيه، وعلاوة على ذلك أقام لافروفسكي الكئيب فيه في الأوقات التي لا يكون فيها ثملاً. في هذه الأوقات إما يجلس على دكة صغيرة، ويخفي وجهه بين يديه، وينثر خصلات شعره الطويلة، وإما يسير من زاوية إلى أخرى بخطوات سريعة. كان شيء ما ثقیل الوطأة وكئيب يفوح من هذا الجسد، لم تستطع أعصابي تحمله. أما بقية السكان الفقراء، فقد اعتادوا منذ فترة طويلة بالفعل على شذوذ أفعاله. أجبره الجنرال توركفيتش أحياناً على إعادة كتابة الالتماسات والاعتراضات التي ألّفها بنفسه لسكان المدينة، أو مقاطع هجاء وتشهير تُعلّق بعد ذلك على أعمدة

الإنارة. كان لافروفسكي يجلس بامتثال إلى طاولة في غرفة تيبورتسي، وطوال ساعات متتالية يكتب سطورًا رائعة ومنظمة. تصادف مرة أو اثنتين أن رأيتهم يجرونه ثملًا، فاقد الحس، من الأعلى إلى السرداب. يتدلى رأس البائس ويتأرجح من جانب لآخر، وتنجر قدماء بلا حول ولا قوة على الدرجات الحجرية، ويرتسم على وجهه تعبير المعاناة، وتنهمر الدموع على وجنتيه. في هذه الأوقات كنت أنا وماروسيا يتشبث الواحد منا بالآخر ونراقب المشهد من زاوية بعيدة، بينما ينطلق فاليك بحرية كاملة بين الكبار، ويرفع يد لافروفسكي أو قدمه أو رأسه.

كل ما كان يسليني في الشوارع ويشير اهتمامي بهؤلاء الناس، ويبدو لي عرضًا هزليًا، تراءى لي هنا من وراء الكواليس بشكله الحقيقي وأثقل قلبي الطفولي بشدة.

تمتع تيبورتسي هنا بسلطة لا يمكن خرقها. لقد فتح هذه السرايب، وصار الأمر فيها، وامتلل الجميع لأوامره. ربما لهذا السبب تحديدًا لا أتذكر مرة واحدة حدث فيها أن توجه إليّ واحد من هؤلاء الناس الذين فقدوا مظهر البشر بلا شك بأي مقترح سيئ. الآن، وبعد أن اكتسبت الحكمة من تجربتي في الحياة، أعرف بالطبع أن فجورًا مبتذلًا ورذائل رخيصة وعفنًا ملأوا هذا المكان، لكن عندما أتذكر هؤلاء الناس وترسم صورهم في ذاكرتي، وقد اكتنفها ضباب الماضي، لا أرى سوى ملامح مأساة ثقيلة الوطأة وحزن عميق وحاجة مفرطة.

تُمثّل فترة الطفولة والشباب مصادر عظيمة للمثالية!

أخذ الخريف يقترب، وامتلاأت السماء بالسحب بدرجة متزايدة

وغرقت في محيط من الشفق الضبابي، وتدفقت تيارات الأمطار على الأرض، مُردّدة قعقة متماثلة وحزينة في السرايب.

كلفني الهروب من المنزل في طقس كهذا متاعب كثيرة، ومع ذلك حاولت دائماً أن أغادر خفية، وعندما أعود إلى المنزل مبلاً تماماً، أعلّق ثيابي أمام الموقد وأستلقي بتواضع على فراشي، وألزم صمتاً فلسفياً أمام وابل التوبيخات التي تنهال عليّ من المربية والخادومات.

في كل مرة ألتقي فيها بأصدقائي ألاحظ أن ماروسيا تزداد مرضاً. صارت الآن لا تخرج بتأتاً خارج السرداب، واستمر الحجر الرمادي، الوحش المظلم والصامت في السرداب، في عمله المريع، بلا كلل ولا ملل؛ استمر في امتصاص الحياة من هذا الجسد الصغير. صارت الفتاة تقضي جل وقتها على الفراش، بينما استنفدنا، أنا وفاليك، كل جهودنا تقريباً لنسليها ونُرْفَ عنها حتى نشير فيها هذه التدفقات الناعمة من الضحك الواهن.

الآن، وبعد أن تعودت تماماً على «الصحبة السيئة»، صارت ضحكة ماروسيا الحزينة عزيزة عليّ مثل ضحكة أختي تقريباً، ولكن هنا لم يظهر لي أحد قط بمظهر الغاضب من فساد، فلم أجد هنا مربية نكدة، وكنت هنا في حالة احتياج، وشعرت أن وجودي يشير احمرار وجنتي الفتاة. كان فاليك يعانقني كأخ، بل وينظر تيبورتسي بين الحين والآخر إلى ثلاثتنا نظرة غريبة يومض فيها شيء ما يبدو كدمعة.

بمرور فترة من الوقت صفت السماء مجدداً، وجلت منها الغيوم الأخيرة، وسقطت أشعة الشمس فوق الأرض الجافة للمرة الأخيرة قبل بداية الشتاء. صرنا نحمل ماروسيا يومياً إلى فوق، وبدت وكأنها

تعود للحياة. نظرت الفتاة من حولها بعينين مفتوحتين على آخرهما، وتوردت وجتها، وبدا الأمر كما لو أن الريح قد أحاطت بها بهباتها المنعشة وأعادت لها جزئيات الحياة التي سرقها منها الأحجار الرمادية في السرداب. لكن هذا الحال لم يستمر طويلاً.

في هذه الأثناء بدأت السحب تجتمع فوق رأسي أنا أيضاً.

ذات مرة، سرت في أزقة الحديقة كالمعتاد، ورأيت أبي في أحدها وبجانبه يانوش العجوز من القلعة. انحنى العجوز بتذلل وقال شيئاً ما لأبي الواقف متجهماً، وقد تجعد جبينه من الغضب الشديد. في النهاية مديده، كما لو أنه يدفع يانوش بعيداً عن طريقه، وقال:

- امضي بعيداً. لست سوى مُرَوِّج إشاعات عجوز.

طرفت عينا العجوز، وانطلق مسرعاً إلى الأمام مجدداً، ممسكاً بقبعته، وسد الطريق أمام والدي. شعّت عينا والدي بالغضب. تحدث يانوش بصوت خافت ولم أستطع تبين حديثه، لكنني سمعت عبارات أبي المتقطعة بوضوح، وبدأت في وقعها عليّ كضربات السوط.

- لا أصدق كلمة واحدة. ماذا تريد من هؤلاء الناس؟ أين الأدلة؟

أنا لا أقبل باتهامات شفهية وحسب، بل يجب أن تثبت ذلك كتابة. احرص، هذا ليس من شأني. لا أريد أن أستمع لك.

أخيراً دفع يانوش بعيداً بشكل حاسم ولم يجرؤ الأخير على إزعاجه مجدداً، وانعطف أبي إلى زقاق جانبي، أما أنا فقد هرعت إلى البوابة.

شعرت بكراهية شديدة لهذه البومة العجوز من القلعة، وارتجف

قلبي بعدها من نذير السوء. أدركت أن هذا الحوار يتعلق بأصدقائي، وربما بي أيضًا.

ارتسمت على وجه تيپورتسي تكشيرة مريعة عندما حكيت له ما حدث، وقال:

- أوف! كم هي أخبار سيئة أيها الصغير! ضبع عجوز لعين!
أضفت، لأبعث فيه نوعًا من العزاء:
- طرده أبي.

- أبوك أيها الصغير هو الأفضل بين القضاة جميعهم، منذ زمن الملك سليمان. ولكن هل تعرف ماذا تعني: سيرة ذاتية^(٦٢)؟ لا تعرف بالطبع. السيرة الذاتية هي تاريخ حياة شخص لم يعمل في محكمة إقليمية. إذا كانت البومة العجوز قد شمشمت عن آثار شيء ما من الماضي عني وسلّمت لأبيك قائمة بما فعلت، فأقسم بوالدة الإله إنني لا أود أبدًا أن أقع في قبضة القضاء. سألته، متذكرًا تعليق فاليك عنه:
- ولكن هل هو شرير؟

- لا، لا أيها الصغير. عسى أن يحميك الله من هذا الظن في والدك. يتمتع أبوك بقلب رحيم، كما أنه يعرف كثيرًا... ربما يعرف بالفعل كل ما يمكن ليانوش أن يخبره به، لكنه يصمت ولا يرى ضرورة لتسميم وحش عجوز فقد أسنانه في عرينه الأخير. كيف يمكنني أن أشرح لك ذلك أيها الصغير؟ أبوك يخدم سيدًا اسمه

(٦٢) باللاتينية في الأصل.

القانون. لديه عينان طيبتان وقلب رحيم ما دام القانون محفوظاً على رفه، لكن عندما يهبط إليه هذا السيد ويقول له: «إيه أيها القاضي، ألا يجب علينا فحص ما يتعلق بتبورتسي دراب أو أياً كان اسمه؟»، من هذه اللحظة يغلق القاضي على قلبه تماماً بالمفتاح. مقابض القضاة قوية إلى درجة أنه من الأسهل أن تدور الأرض في الاتجاه المعاكس عن أن يستطيع السيد تبورتسي الإفلات من هذه القبضة. أتفهم أيها الصغير؟ لذلك أكن احتراماً لأبيك لأنه خادم مخلص لسيدته، ويندر وجود هذه النوعية من الناس الآن. لو كان خدم القانون جميعهم كذلك لنام مطمئناً على رفوفه ولما استيقظ أبداً. تتمثل بليتي كلها في حدوث خلاف بيني وبين القانون ذات مرة منذ زمن بعيد. حدث خلاف مفاجئ بيننا. آخ أيها الصغير! كان نزاعاً ضخماً حقاً.

بعد هذا الحديث نهض تبورتسي وأخذ ماروسيا بين ذراعيه وابتعد معها إلى زاوية بعيدة، وأخذ يُقبّلها ويضغط برأسه القبيح على صدرها الصغير. أما أنا فقد مكثت في مكاني وقد ظللت واقفاً تحت تأثير انطباع الأحاديث الغريبة لهذا الشخص الغريب. على الرغم من التحولات الغريبة وغير المفهومة فإني أدركت جيداً جوهر ما قاله تبورتسي عن أبي، وظلت شخصية أبي تنمو في مخيلتي وقد أحاطت بها هالة من القوة الهائلة ولكن المتعاطفة، بل وأحاطت به هالة من العظمة أيضاً. لكن في الوقت نفسه تعاضم في داخلي شيء آخر؛ تعاضم شعوري المرير وقلت في نفسي «صحيح إنه كذلك لكنه لا يحبني».

دمية

مرت الأيام الصافية وساء حال ماروسيا مجدداً. نظرت إلى كل صنوف مزاحنا الهادفة إلى تسليتها بلا مبالاة بعينها الكبيرتين اللتين تعاظم إظلامهما وسكونهما، ولم نعد نسمع صوت ضحكتها منذ فترة طويلة. جلبتُ ألعابي إلى السرداب لكنها لم تسلّ الفتاة إلا لفترة قصيرة. حينها قررت التوجه إلى أختي سونيا.

خطيت سونيا بدمية كبيرة ذات وجه مطلي بألوان زاهية وشعر كتاني فاخر، كانت هدية من أمنا الراحلة. علقتُ آمالاً كبيرة على هذه الدمية، لذلك اصطحبت أختي إلى زقاق جانبي في الحديقة وطلبت منها أن تمنحني هذه الدمية لفترة من الوقت، ووصفت لها بوضوح الفتاة المريضة التي لم تحظَ قط بأي ألعاب، وكان طلبي مقنعاً حتى إن سونيا التي ضمت الدمية إلى صدرها في البداية أعطتني إياها، ووعدتني أن تلعب بألعاب أخرى خلال اليومين أو الثلاثة القادمين من دون أن تذكر لأحد شيئاً عن هذه الدمية.

فاق تأثير هذه الشابة الأنيقة كل توقعاتي على مريضتنا. بدا الأمر كما لو أن ماروسيا التي تلاشت كزهرة في الخريف، استعادت فجأة حيويتها مجدداً. عانقتني بقوة وضحكت ضحكة رنانة في أثناء تحدثها

مع صديققتها الجديدة. لقد صنعت الدمية الصغيرة معجزة تقريبًا. بدأت ماروسيا، التي لم تفارق فراشها منذ فترة طويلة، في التمشي، مصطحبة معها ابنتها الشقراء، بل إنها ركضت بين الحين والآخر، وضربت خطوات قدميها الضعيفتين الأرض.

إلا أن هذه الدمية جعلتني أمر بلحظات مقلقة للغاية. بادئ ذي بدء، عندما حملتها في حضني، وتوجهت إلى الجبل، وقعت في طريقي على يانوش العجوز الذي تابعني بعينه لفترة طويلة وأخذ يهز رأسه. بمرور يومين تقريبًا لاحظت المربية العجوز اختفاءها وظلت تفتش عنها في كل مكان. حاولت سونيا تهدئتها، لكن تأكيدات الساذجة بأنها لا تحتاج إلى الدمية، وأن الأخيرة خرجت لتتنزه قليلًا وسوف تعود سريعًا، لم تفعل شيئًا سوى إثارة حيرة الخادما وشكوكهن في أن الأمر أكبر من مجرد ضياع عادي للدمية. لم يكن أبي قد عرف شيئًا بعد، لكن يانوش أتى إليه ثانية وطُرد هذه المرة بغضب أشد. وفي اليوم نفسه أوقفني أبي في طريقي إلى بوابة الحديقة وأمرني بالبقاء في المنزل. في اليوم التالي تكرر الأمر، وبعد أربعة أيام استيقظت مبكرًا وتسقلت السياج وأبي لا يزال نائمًا.

وجدت الأمور قد ساءت مجددًا في الجبل. لازمت ماروسيا فراشها، وساءت أحوالها، واحمر وجهها احمرارًا غريبًا، وتناثرت خصلات شعرها الشقراء على الوسادة. لم تعد تعرف أحدًا. استلقت الدمية المشؤومة إلى جانبها بوجنتيها الحمراء وعينيها المتلاثلتين الغبيتين.

بُحِتَ لفاليك بمخاوفي ورأينا ضرورة إعادة الدمية، خاصة أن
ماروسيا لن تلاحظ ذلك. لكننا كنا مخطئين! ما إن جذبتُ الدمية من يد
الفتاة المستلقية في غياهب النسيان حتى فتحت عينيها ونظرت أمامها
نظرة غائمة، كما لو أنها لا تراني، ولا تعرف ماذا يحدث معها، وفجأة
بكت بهدوء، ولكن في الآن ذاته بأسى، وانطبع على وجهها الهزيل
القابع تحت دثار الهذيان، تعبير بالحزن العميق، حتى إنني أعدت الدمية
إلى مكانها فوراً من الخوف.

ابتسمت الفتاة وضمت إليها الدمية وهدأت. فهمت أنني بذلك أردت
أن أحرم صديقتي الصغيرة من أول وآخر فرحة في حياتها القصيرة.
نظر إليّ فاليك بارتباك، وسألني بحزن:

– ما العمل الآن؟

كان تيپورتسي جالساً على الدكة، حزناً ومحني الرأس، ونظر إليّ
أيضاً نظرة استفهام. لذلك حاولت أن أبدو خالي البال وقلت:
– لا شيء. من المؤكد أن المربية نسيت الأمر بالفعل.

لكن العجوز لم تنسَ. عندما عدت إلى المنزل هذه المرة صادفت
يانوش مجدداً عند البوابة. وجدت أختي بعينين باكيتين، وألقت المربية
نظرة غاضبة ساحقة عليّ وغمغمت بشيء ما بفمها الخالي من الأسنان.
سألني أبي إلى أين ذهبت، وبعد أن استمع باهتمام إلى إجابتي
المعتادة اقتصر الأمر على أن كرر لي أمره بعدم مغادرة المنزل – تحت
أي ظرف من الظروف – من دون إذنه. كان أمره هذه المرة قاطعاً

وحاسماً، ولم أجرؤ على عصيانه، لكنني لم أستطع أيضاً أن أتوجه إلى أبي لطلب إذنه بالخروج.

مرت أربعة أيام من العذاب. تمشيت بحزن في الحديقة، ناظراً بكآبة صوب الجبل، وعلاوة على ذلك كنت في انتظار عاصفة رعدية تتأهب للهبوب فوق رأسي. لم أعرف ماذا سيحدث لكنني شعرت بانقباض قلبي. لم يعاقبني أحد طوال حياتي. لم يقتصر الأمر على أن أبي لم يمد قط يده عليّ بالسوء، بل لم يقل لي قط كلمة حادة. الآن يعذبني هاجس شديد الوطأة.

أخيراً استدعاني والدي إلى مكتبه. دخلت ووقفت خجلاً عند العتبة. لاحت شمس الخريف الحزينة من النافذة. وجدت أبي جالساً على مقعده أمام صورة أُمي، ولم يستدر صوبي. سمعت دقات قلبي القلقة.

أخيراً التفت إليّ. رفعت عيني إليه ثم طرقت برأسي مجدداً. بدا وجه أبي مريعاً. مرت نصف دقيقة تقريباً، وشعرت في هذه المدة بنظراته الثقيلة والثابتة والقامعة مُسلّطة عليّ.

- هل أخذت دمية أختك؟

وقعت عليّ هذه الكلمات بشكل مفاجئ وحاد إلى درجة أنني ارتعشت. أجبتّه:

- نعم.

- أتعرف أن هذه الدمية هدية من والدتك وكان يجب أن تعتز بها بوصفها شيئاً مقدساً؟ هل سرقتها؟

رفعت رأسي وقلت:

- لا.

صاح أبي دافعاً المقعد بعيداً:

- كيف لا؟ سرقته وأعطيتها لأحد. لمن أعطيتها؟ تكلم.

اقترب مني سريعاً ووضع يده الثقيلة على كتفي. رفعت رأسي ونظري بصعوبة. بدا وجه أبي شاحباً. لم تستوِ ثنيات الألم التي ظهرت بين حاجبيه منذ وفاة أمي حتى الآن، وبدأت نظرتة متقدة بالغضب. انكمشت. شعّ من هاتين العينين اللتين لوالدي الجنون أو الكراهية، كما بدا لي. قال ممسكاً كتفي بيده، وقد اشتد ضغطها:

- حسناً، ماذا فعلت؟ تكلم.

أجبت بهدوء:

- لن أقول.

صاح أبي، ونبرته تنذر بالخطر:

- بل قل.

همست بقدر أكبر من الهدوء:

- لن أقول شيئاً.

- قل، قل.

كرر الكلمة بصوت مكتوم كما لو أنه يخرج به ألم شديد ومجهود كبير. شعرت كيف ترتعش يده، وبدالي أيضاً أنني سمعت الغضب الشديد

يغلي في صدره. ازداد خفضي لرأسي وتساقطت دمعة تلو الأخرى من عيني على الأرض، لكنني ظللت أكرر بصوت غير مسموع تقريباً:

- لا، لن أقول. أبداً. لن أقول لك أبداً مهما حدث.

في هذه اللحظة كان ابن هذا الأب هو من يتحدث في داخلي. لم يكن ليستخلص مني كلمة واحدة حتى لو عرّضني لأقطع صنوف العذاب. تصاعد في صدري شعور يقابل تهديداته، وكان شعوراً واعياً ومهيناً لطفل مهجور، وكذلك شعوراً بالحب القوي لمن بثوا فيّ دفئاً في الكنيسة القديمة.

أخذ أبي أنفاسه بصعوبة وشعرت بقدر أكبر من الذعر وبلّلت الدموع الحارقة وجتي. انتظرتُ.

يصعب جداً أن أصف الشعور الذي اختبرته في هذه اللحظات. كنت أعرف أنه سريع الغضب بدرجة مريعة وأن الحنق يغلي في صدره إلى درجة يمكنه فيها بعد ثانية واحدة أن يمزق جسدي الذي لا حول له ولا قوة بيديه القويتين المهتاجتين. ماذا سوف يفعل معي؟ سيلقي بي أو يكسرنِي، ولكن يبدو لي أن ذلك لم يكن مبعث خوفاً. حتى في هذه اللحظة المريعة أحببت هذا الإنسان، لكنني في الآن ذاته شعرت تلقائياً أنه في الوقت الحالي سوف يُحوّل حبي إلى أشلاء بعنفه الهائج، لدرجة أن الكراهية النارية التي لاحت لي في عينيه القاتمتين ستظل تضطرم في قلبي طوال حياتي بين يديه وبعد ذلك، وإلى الأبد.

الآن لم أعد أشعر بالخوف بتاتاً. بدأ شيء يعتمل في صدري يشبه نوعاً من التحدي الوقح والمستفز. يبدو أنني كنت في انتظار، بل وأملت،

أن تحل الكارثة في النهاية. إذا كان الأمر كذلك فليكن ما يكون. هكذا أفضل بكثير، بل أفضل بكثير جدًا.

تنهد أبي، ولم أعد أنظر إليه، بل سمعت فقط تنهده الثقيل وأنفاسه المجهدة والمتقطعة. لا أعرف حتى الآن ما إذا كان قد استطاع تمالك نفسه من حالة الالتهاج التي تملكته، أم أنه لم يجد متنفسًا لشعوره هذا بسبب الظروف المفاجئة التي حدثت بعد ذلك. كل ما أعرف هو أنه في هذه اللحظة الحاسمة تردد صوت تيبورتسي الحاد فجأة من خلف النافذة:

- إيه يا صديقي الصغير المسكين.

«لقد وصل تيبورتسي». ومضت الفكرة في رأسي لكنها لم تترك في أي انطباع. تحول كل كياني إلى الانتظار، بل إنني شعرت كيف ترتعش يد أبي فوق كتفي، ولم أتصور أن ظهور تيبورتسي، أو أي ظرف خارجي آخر، يمكن أن يقف بين والدي وبيني، وأن يحول دون حدوث ما اعتبرته أمرًا حتميًا؛ ألا وهو اندلاع موجة غضب قوية متبادلة.

في هذه الأثناء فتح تيبورتسي سريعًا الباب الأمامي وتوقف عند العتبة، ونظر إلينا لثانية واحدة بعينه الحادتين كعيني الوشق. إلى الآن لا أزال أتذكر كل تفصيلة في هذا المشهد. للحظة ومضت في العينين الخضراوين في الوجه العريض والقيح لخطيب الشارع سخرية باردة وخبيثة، لكنها لم تستمر لأكثر من لحظة. بعد ذلك هز رأسه ولاح في صوته ما يبدو بالأحرى حزنًا بدلًا من سخريته المعتادة.

- إيه! أرى صديقي الصغير في موقف شديد الصعوبة.

قابله أبي بنظرة قاتمة ومشدوهة لكن تيورتسي تحملها بهدوء. بدا
جاءاً ولم يكشّر بوجهه ولاح حزن خاص في عينيه. قال بلين:

- سيدي القاضي، أنت رجل عادل. اترك الطفل. كان الصغير وسط
صحبة سيئة، ولكنني أشهد أمام الله أنه لم يفعل شيئاً سيئاً، وإذا
كان قلبه قد تعاطف مع أبنائي المساكين والمعدمين، فوحد
والدة الإله الأفضل أن تشنقني عن أن أسمح بأن يعاني الصبي
بسبب ذلك. ها هي دميّك أيها الصغير.

فك حرّمته وأخرج منها الدمية. خفت يد أبي المرتعشة فوق كتفي،
وبانت الدهشة على وجهه. سأل أخيراً:

- ماذا يعني ذلك؟

كرر تيورتسي وهو يرتبكفه العريضة على رأسي المحني:

- اترك الصبي، لن تستخلص منه شيئاً بالتهديد، وأنا سأحكي لك
طواعية كل ما تريد معرفته. فلنمضِ يا سيدي القاضي إلى الغرفة
الأخرى.

أطاعه أبي الذي ظل ينظر إليه نظرة مشدوهة. خرج كلاهما وبقيت
في مكاني مسحوقاً تحت وطأة المشاعر التي اعتملت في قلبي. لم أدرك
شيئاً في هذه اللحظة، وإذا كنت الآن أتذكر المشهد بكل تفاصيله؛ مثلاً
كيف ظلت العصافير تمرح خلف النافذة وكيف ظلت تصل من النهر
دقائق مرحة ومتناغمة، فكل ذلك مجرد عمل آلي للذاكرة، ولم أشعر
بوجود أي شيء من ذلك وقتها. لم أكن سوى صبي صغير اعتلج في

صدره شعوران مختلفان: الغضب والحب، وقد اعتلجا بقوة إلى درجة أن تلبد قلبه كما يتلبد سائلان متباينان في كأس واحدة تعرضت لصدمة. كنت هذا الصبي، وكان هذا الصبي أنا، وبدا لي أنني أشعر بالأسف على نفسي. علاوة على ذلك سمعت صوتين غير واضحين من خلف الباب، على الرغم من حيوية الحوار بينهما.

كنت لا أزال في مكاني عندما انفتح باب المكتب ودخل كلا المتحدثين. شعرت مجدداً بيد ترتعش فوق رأسي وتربت على شعري. حملني تيورتسي وأجلسني على ركبتيه في حضور أبي. قال:
- تعال إلينا. أبوك يسمح لك بأن تأتي معي لتودع ابنتي. لقد... لقد ماتت.

ارتعش صوت تيورتسي، وطرقت عيناه بغرابة، لكنه نهض سريعا وأعادني إلى الأرض، واستقام ثم غادر الغرفة مسرعا.

رفعت عيني باستفهام إلى أبي. وجدت إنساناً آخر يقف أمامي في هذه اللحظة، لكنني وجدت في هذا الإنسان تحديداً شيئاً عزيزاً ظللت أبحث عنه من قبل بلا جدوى. نظر إليّ نظرتة المستغرقة المعتادة، لكنني رأيت في هذه النظرة جانباً من الدهشة يبدو كما لو أنه سؤال. بدا لي أن العاصفة التي اجتاحت كلينا لتوها قد بددت الضباب الكثيف الذي علق بنفس والدي وحجب نظرتة الطيبة والمحبة. الآن فقط بدأ والدي يتعرف فيّ على السمات المألوفة لابنه.

أمسكت يده بثقة وقلت:

- أنا لم أسرق. سونيا أعارتني إياها بنفسها لبعض الوقت.

أجاب مستغرقًا في التفكير:

- نعم. أعرف. أنا مذنب في حقك يا فتى، وأعلم أنك ستحاول

نسيان هذه الإساءة، أليس كذلك؟

أمسكت يده بقوة وبدأت أُقبِّلها. علمت أنه لن يعود ينظر إليَّ هذه النظرات المريعة مجددًا التي نظر بها إليَّ منذ بضع دقائق وغمر قلبي حب طويل الأمد.

لم أعد أخاف منه.

سألته بعد أن تذكرت فجأة دعوة تيبورتسي:

- هل تسمح لي الآن بالذهاب إلى الجبل؟

- نعم. اذهب. اذهب يا فتى وودِّعها. (قالها بلطف والحيرة ذاتها لا

تزال تلوح في صوته) لكن انتظر، من فضلك انتظر قليلًا يا فتى.

غادر المكتب متوجهًا صوب غرفة نومه، وخرج منها بعد دقائق ودس في يدي بعض الأوراق قائلًا:

- أعطها لتيبورتسي وقُلْ له إنني أسأله بكل تواضع أن يقبلها.

أنفهم؟ قُلْ له إنني أسأله بكل تواضع أن يقبل مني هذا المال.

أفهمت؟ (أضاف أبي بتردد) وقُلْ له أيضًا إنه لو يعرف أحدًا

هنا يُدعى فيدوروفيتش فعليه أن يقول له إنه يجدر به أن يغادر

مدينتنا. اذهب الآن يا فتى، اذهب بسرعة.

لحقت بتيبورتسي على الجبل، ونفذت أمر أبي بخراقة بعض

الشيء، وقلت لاهثاً: «أبي... يطلب منك بتواضع...». وأعطيته المال الذي أعطاني أبي إياه.

لم أنظر إليه مباشرة. أخذ المال واستمع بوجوم إلى التعليمات الإضافية بخصوص فيدوروفيتش.

وجدت ماروسيا مستلقية في زاوية مظلمة فوق الدكة. لم أملك تصورًا واضحًا عن كلمة «الموت» في هذه السن، واقتصر الأمر على أن دموعًا مريرة انحبست في حلقي عندما رأيت هذا الجثمان الهامد. استلقت صديقتي الصغيرة في منظر كئيب وحزين، وقد ارتسم الحزن على وجهها الصغير. بدت عيناها المغلقتان غائرتين بعض الشيء، كما ظهرت ظلال زرقاء أشد حدة. انفتح الفم قليلاً وقد رسم تعبيرًا حزينًا. بدا الأمر كما لو أن ماروسيا ترد على دموعنا بهذه التكشيرة.

وجدت الأستاذ واقفًا عند رأسها يهز رأسه بفتور. رأيت ضابط المدفعية يدق الأرض بفأسه، ويعد - بمعاونة بضعة من الهياكل القاتمة - نعشًا من ألواح خشبية قديمة اقتُلعت من سقف الكنيسة. تولى لافروفسكي - غير الثمل - تزيين ماروسيا بزهور خريفية جمعها بنفسه، وقد بدا في تمام الانتباه. أما فاليك فكان نائمًا في إحدى الزوايا، وجسده يرتجف في أثناء النوم، وبين الحين والآخر ينشج بعصبية.



خاتمة

بعد هذه الأحداث سرعان ما تناثر أعضاء «الصحبة السيئة» في أماكن مختلفة. لم يتبقَّ منها سوى «الأستاذ» وظل - كعادته - يحب شوارع المدينة حتى موته، كما بقي توركيفيتش الذي كان والذي يعهد إليه بين الحين والآخر بأعمال كتابية. من ناحيتي، سفكت دماء كثيرة في معاركي مع الصبية اليهود الذين ظلوا يعذبون «الأستاذ» بذكر أدوات القطع والثقب في حضوره.

توجه ضابط المدفعية وبقية الهياكل القائمة إلى مكان آخر نشدأنا للسعادة. اختفى تيپورتسي وفاليك تمامًا على نحو مفاجئ، ولم يستطع أحد الجزم بالمكان الذي توجهوا إليه، كما لم يعرف أحد من أين جاء إلى مدينتنا.

عانت الكنيسة القديمة بشدة من ضربات الزمن. في البداية انهار سقفها على سقف السرداب، ثم توالى الانهيارات حول الكنيسة وصارت أشد قتامة وتعالى نئيج البوم، وصارت الشعلات تومض بنور أزرق مشؤوم في المقابر في الليالي الخريفية القائمة. مقبرة واحدة فقط مُسيَّجة تتحول في كل ربيع إلى اللون الأخضر من العشب الطازج المليء بالزهور.

كنا - أنا وسونيا، وأحياناً يصحبنا أبي أيضاً - نزور هذه المقبرة.
أحببنا الجلوس هناك في ظلال أشجار البتولا بحفيفها الغامض حيث
نطل على المدينة التي تتلأأ بهدوء في الضباب. كنا - أنا وأختي -
نقرأ هناك ونفكر ونشارك أفكارنا الأولى الشابة، وخططنا الأولى لفترة
الشباب الطامحة والصادقة. عندما حان الوقت، وتوجب علينا مغادرة
مدينتنا الهادئة، تلا كل منا في اليوم الأخير نذوره وتعهدهاته فوق هذه
المقبرة الصغيرة، بقلب مليء بالحياة والأمل.

١٨٨٥

* * *

